كتب ثقافية

من قصص شكسبير



كتب ثقافية

الكتاب ٣١

من قصص شكسبير

حياة يوليوس قيصر

ومماته

يعرف يوليوس عادة بأنه أول أباطرة روما وحكامها المطلقين، وكانت روما من قبله فى الأيام الخالية تحكمها هيئة من خيار بنيها، وأفاضل مواطنيها . .

وكانت عادة الرومان ومفخرتهم أن يضعوا صالح بلادهم فوق مصالحهم الذاتية ، ولكن حين أخذت روما تزداد قوة على الأيام ويمتد سلطانها شيئاً فشيئاً على أمم كثيرة وشعوب عدة ، لم يلبث الرومان أن فقدوا كثيراً من وطنيتهم القديمة . وبدلا من أن يعملوا فى سبيل الصالح العام راحوا ينقسمون على أنفسهم ، ويتفرقون شيعاً وأحزابا ، لكل شيعة رئيسها ، ولكل حزب زعيمه ، وظلوا أبداً فيما بينهم يشتجرون ويتنازعون ، وكل يلتمس مصلحة حزبه ويبتغى المنفعة لجماعته . .

وقد كان النزاع عند ابتداء هذه الرواية بين زعيمين قويين ، هما : بومبي ويوليوس قيصر ، قد انتهى أخيراً بهزيمة بومبي ووفاته وعودة قيصر إلى روما ، فى فرحة النصر ، وانتماش الغلبة فأصبح أعظم رجل فى الدولة سلطانا . .

ولعله كان من الخير لروما فى هـذه المرحلة من تاريخها أن يحكمها فرد قوى متفان فى سبيل خير الشعب ، ولـكن كثيرين لم يكونوا يرون هذا الرأى ، أو يعتقدون هذا الاعتقاد ويريدون أن يبقى نظام الحـكم القديم قائما . .

فلما آب يوليوس قيصر إلى روما للاحتفال بانتصاره الأخير راح الشعب كعادته بستمتع بعيد عام فازدحمت الشوارع بهم ، تحدوهم الرغبة الحارة إلى الهتاف على الملأ بحيـاة المنتصر وتمجيده وتـكريمه . .

وكانوا من عهـد غير بعيد قد احتفلوا بانتصارات كثيرة لبومبي حين غزا أقاليم مترامية الأرجاء فى بلاد الشرق وفتحها لروما فتحاً مبينا ، فإذا هم الآن يستعدون لمثل ذلك ونحوه لقيصر منافسه وصاحب الغلبة عليه . .

وبينما كان أفراد الشعب مجتمعين فى الشوارع ، وقد تجملوا بزاهى الثياب واستقبلوا العيد بما يقتضيه من نفسية مرحة ، إذ التقوا باثنين من ولاتهم ، وكان هؤلاء الولاة أو الحكام من رجال الدولة الذين من أخص واجباتهم أن يرعوا مصالح العامة ويشرفوا على خير السوقة ، فوقف هذان يخطبانهم ويوجهان اللائمة إلى الغوغاء والرعاع والمتسكعين فيهم ، وعلى جحودهم فضل بطلهم السابق ، وهو بومبى .

قال أحدهما : « تباً لكم يا أهل القلوب الجامدة ، أبناء روما الجفاة القساة ألم تكونوا تعرفون بومبى ، لكم تسلقتم الجدر ، وتسنمتم الأسوار وصعدتم البروج ، وعلوتم النوافذ والشرفات ، بل أعالى المداخن فى الدور والبيوت محتضنين ولدانكم ، محتملين فوق أذرعكم أطفالكم ، ماكثين طيلة النهار فى مواضعكم ، صابرين مترقبين ، لكى تشهدوا بومبى العظيم وهو يجتاز شوارع روما . . . ؟ »

وكان الولاة أن يخشون يظفر قيصر بتأييد الشعب ويستأثر

بالسلطان وحده ، فلم يشاءوا أن يتباهى الشعب فى الجنوح إليه ، ولذلك جعلوا يحاولون صرفهم عن الاجتماع والتجمهر لتحيته .

ودخل قيصر المدينة ، وهو عائد من انتصاره فى موكب عام يحف الكبراء من حوله ، ويمشى الزعماء فى ركابه ، وكان معه مارك أنتونى الذى كان رئيس أركان حربه فى فتوحه وغزواته ، وبروتس ، وكان عضواً كبيراً فى مجلس الأعيان ، وصديقه الذى يثق به ، ووليه الذى يسكن إليه .

على أنه كان من بين الحافين من حوله من يضمرون له الحسد وينفسون عليه نجاحه وشهرته ومحبة الشعب له .

ولما كان من تقاليد روما وعاداتها القديمة أن يحكمها مجلس الأعيان « السناتو » ، كان يلوح من الغريب أيضاً ، ومن الخطر كذلك أن يتولى رجل واحد مقاليد الدولة ، ويعهد إليه بشئون البلاد ، مهما كان هذا الفرد الأوحد من أصالة الرأى ! والحكمة والروح الشعبية . .

ولهذه العوامل كان لقيصر أعداء كثيرون بين معاشر الأعيان .

وفيما كان موكب الاحتفال بتكريم قيصر يخترق الشوارع إذ أقبل عراف يشق الصفوف إلى حيث كان قيصر ! منادياً إياه باسمه مكرراً على سمعه مرتين نذيره بقوله :

« حذار من اليوم الخامس عشر من شهر مارس ! » .

ولكن قيصر صرفه عنه ، ولم يستمع له ، إذ أعده مخرفاً صاحب أوهام وترهات .

وانطلق الموكب فى طريقه ..

غير أن بروتس لم يكن يحس وهو فى الموكب انبعاثاً إلى المرح ولم يكن يستشعر الانشراح ، فانتبذ من المهرجان ناحية ! وما لبث أن وجد نفسه مصادفة فى خلوة مع أحد عارفيه ، وهو رجل يدعى « كاسياس » ، كان فى الظاهر صديقاً لقيصر مواليا ، وإن كان فى الباطن يطوى الجوانح على عداوته . .

ودار الحديث بين كاسياس وبروتس فما لبث كاسياس أن تبين أن بروتس على الرغم من عظيم محبته لقيصر وصداقته كان يخشى أن يعرض الشعب عليه الملك وينادى له بالإمارة ، فيسىء قيصر استعمال سلطته ويستغل ملكوته .

ولهذا راح كاسياس ينتقص قيصر فى حديثه و يحاول إثارة الشك فى نفس بروتس من جهته والارتياب به فأنشأ يقص عليه كيف تحداه قيصر فى ذات يوم اشتد قره ، وابترد جوه ، فى السباحة ، فى نهر التايبر إلى حد معلوم ، ونقطةمعينة ، فلم تلبث قواه — بحسب رواية كاسياس — أن خارت وكاد أن يذهب فى المغرقين لولا أن بادر إليه كاسياس فأعانه على الرجوع إلى الشاطىء ناجيا . بل ذهب كاسياس يصطنع خلال حديثه أقاصيص وروايات أخرى مصوراً فيها قيصر خلواً من الهمة والشجاعة والإقدام ، مبيناً ألا حق لمثله فى السيطرة على الآخرين .

فـكان مما قاله :

« أرأيت إليه ياصاح كيف ضاقت الدنيا عن منفرج قدميه ، كأنه التمثال الضخم والنصب العظيم ، ونحن الصغار الأقزام نمشى من تحت ساقيه الفسيحتين الضخمتين، ونتلفت فيما حولنا لنلتمس لأنفسنا قبوراً توارى عارنا ولحوداً تحجب خزينا ...

« ألا أن الناس أحياناً لمتحكمون فى مصـائرهم ، مخضعون الحظوظ لمشيئتهم فالذنب ياعزيزى بروتس ليس ذنب طوالعنـا ونجومنا ، ولـكن الذنب ذنبنا . فى أننا الأسافل المتخلفون ..»

وانتهى كاسياس من هذا الكلام ونحوه إلى القول بأن الرومانى الشريف العزيز النفس لا يمكن أن يسمح لفرد ما أن يستعبد أمة الرومان .

وسمع بروتس ذلك التحذير والتنبيه . فتـــأثر به إذ وافق هواجسه. وطابق مخاوفه. ووعد كاسياس بأن يتروى فى هذا الأمر ويفكر فيه مليا وراح يناجى نفسه قائلا :

« إن بروتس ليؤثر أن يكون قروياً بسيطاً على أن يعد إبنـــاً لروما فى ظروف محزنة كهذه الظروف التى يحتمل أن يجرها هـذا العهد علينا ... »

وقد أراد بقوله « الظروف المحزنة » أحتمال قيـــام الطغيان وانقلاب قيصر طاغية ..

واستطال بهما الحديث واشتد جده بينما كانت أصداء صيحات الشعب وهتافه تتردد من بعيد حيث تقام الألعاب وضروب اللهو تكريماً لقيصر واحتفالا به

وأخيراً شوهد الموكب عائداً من ساحة الألعاب ، فغادر صديق لكاسياس يدعى كاسكا صفوف الزحام ، ووافاهما ، وذهب يقص

عليها ماحدث فى أثناء عرض الألعاب، واصفاً كيف عرض مارك أنتونى تاج الملك على قيصر ثلاث مرات وأنشأ يعقب على الوصف بقوله أن قيصر إنما رفضه لا لشىء سوى أنه لم يكن واثقاً من أن الشعب يحبذ ذلك ويرتضيه، فازداد بروتس مما سمع من قول كاسكا توجسا من مطامع قيصر ومطامحه

ولما انصرف كل منهم إلى داره بعث كاسياس بكتب غفل من التوافيع ألى بروتس ، موهما بانها مرسلة من أفراد عديدين، وكلها تشير من طرف خفى إلى أن روما تتطلع الى بروتس وترتجيـــه ليحميها من مطامع قيصر ومآربه

على أن كاسياس فى الوقت ذاته كاشف كاسكا بتفاصيل مؤامرة مدبرة للقضاء على قيصر ، فرضى كاسكا الاشتراك مع المتآمرين ، وراح الرجلان يضعان معا الخطة للعمل جهدهما على حمل بروتس على تزعم تلك المؤامرة

وكان مما قاله كاسياس لكاسكا :

« هلم بنا ، ياكاسكا نذهب معاً قبل مطلع النهـــار لنزور بروتس فى داره فقد كدنا نستحوذ على نفسه إلا قليلا، ولن يلبث

عقب المقابلة التالية أن يصبح فى يدنا بكليته .. »

ولم يكن السبب الذى دعا كاسيـاس إلى اختيار بروتس خاصة لقيادة المؤامرة هو ما لبروتس من عظيم النفوذ فحسب ، ولـكن لأنه أيضاً كان محترماً من الكافة لاستقامته وقويم أخلاقه ، ويوم يرى الناس رجلا كبروتس فى مثل رفعة نفسه وسمو خاطره، ينقلب على قيصر ويرتد عدوا له، يعتقدون أنه لا بد من أن يكون على حق فى عدائه ، ولا يخامرهم شك فى عدالة القضية

وفى تلك الليـلة بالذات ، التى تسبق اليوم المشئوم ، اليوم الخامس عشر من مارس ، لم يغمض لبروتس جفن ، وبات مسهداً لا يطاوعه الـكرى . إذ راح ضد نزعاته الطبيعية ، وميله الفطرى يرسم فى رفق فـكرة خطيرة وينتوى نية صعبة المنال، وهى القضاء على قيصر قبل أن يقضى قيصر على الجمهورية

نعم أن قيصر كان صديقه ، ولـكن لعل من الخير ، أن يقتل المرء أى إنسان حتى ولو كان صديقه، إذا كان هذا الصديق يحتمل أن ينقلب خطراً على الدولة .

لقد كان قيصر راغباً فى حمل التاج ، ومعنى هذا أنه كان يريد

أن يكون حاكما بأمره ، فليس ثم من سبيل اذن لمنعـــه من التفرد المطلق بالحـكم غير قتله والايداء بحياته

جالت هذه الخواطر ونحوها فى خلد بروتس ، وأنه كذلك أذ دخل عليه خادمه يحمل اليه رقاعا ورسالات عثر عليهـــا عند نافذة غرفة سيده وكانت هذه الرقاع هى الـكتب الغفل التى زيفها كاسياس ، فلما قرأها بروتس ظنها مرسلة من أفراد حقيقيين من أبناء الشعب وعدها دايلا على مبلغ اعتماد الشعب عليه فى انقـاذ الدولة من خطر قيصر ومطامعه

وبينما كان مستغرقا فى تفكيره ونجوى نفسه إذ جاء كاسياس والمتآمرون معه متسللين سراً إليه لمقابلته . .

وما زال كاسياس به يستميله من ناحية الشعور بالواجب حتى استحوذ أخيراً عليه ، واستولى فى النهاية على مشاعره ، وانثنى الجمع يكيدون كيدهم ، ويدبرون تدبيرهم ، فاقترح بعضهم أن يقتل القوم مارك أنتونى أيضاً لأنه كبير قواد قيصر ورئيس جنده . ولـكن بروتس على الرغم من نصيحة كاسياس قرر تركه والإبقاء عليه إذ بدا له أن مارك أنتونى لم يكن « سوى عضـو من أعضاء

قيصر وشلو من أشلائه، فاذا ذهب الجسم تداعت لذهابه الاعضاء».

ولكن كاسياس، كان أعلم من بروتس بأخلاق الرجال وأصح حكماً وأبعد نظراً وكان ذلك يرى أن أنطونى دساس ذكي وداهية أريب وأنه قد يصبح فيما بعد متعباً لهم خطراً عليهم.

ورضى أحدهم وهو ديسياس الذهاب الى قيصر والتأثير فى نفسه لحمله على الحضور فى ذلك اليوم إلى الكابيتول، مقر الحكم، إذ خشى المؤتمرون أن يتخلف قيصر. فاتخذوا هذه الحيلة ليستوثقوا من حضوره.

وانصرف القوم بعد أن اتفقوا مع بروتس على المكان والتاريخ الذى ينفذون فيهما ماقد بيتوه وكانت بورتسيا زوج بروتس. التى توليه الحب والاخلاص والوفاء، قد لاحظت فى الليلة الماضية على وجه زوجها ومسلكه أمارات الذهول وانشغال البال وسمات الهم والقلق.

فلما استيقظت ليلا، عقب قدوم المتآمرين الكائدين، فطنت إلى انصرافه من المخدع، وسمعته عرضاً يتحدث فى حجرة أخرى، مع زائرين عديدين، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل، على غير المألوف فقلقت وانشغل منها البال كثيراً، وما كاد الحديث ينتهى وتنقطع

الأصوات ، ولم يعد بروتس إلى مخدعه ، حتى نهضت من فراشها فمشت إليه ، وناشدته إلا ما نبأها بما يساوره ، وكاشفها بما يخامر خاطره ، إذ أليس لزوجه وشريكة حياته الحق فى مقاسمته أسراره ، ومشاركته فى خبيئة صدره وخفايا نفسه .

وفيما كانت بورتسيا تحاول إقناعه بوجوب مكاشفتها بهمومه اذ قطع عليهم الحديث قدوم زائر جاء من قبل المتآمرين الآخرين.

ولم يكن هذا الرجل قد رضى الانضمام اليهم وكانوا يريدون من بروتس أن يستميله إلى جانبهم ويضمه إلى جمعهم .

وبينما كان بروتس يكاشف الرجل بأمر المكيدة خطر له له إخلاص زوجه له ووفاؤها الثابت ، فلم يزده التفكير فى حبها وولائها إلا تمسكا بعزمته الجديدة وتشددا فى انفاذ نيته

وراح يدعو الآلهة مخافتاً «أن تجعله خليقاً بهذه الزوج السامية»

وكما كانت هذه الأحداث تجرى فى تلك الليلة بدار بروتس ، كان مثلها فى الوقت ذاته يجرى فى قصر قيصر ، مذ كانت زوجه «كالبيرنيا» قد رأت فى المنام أحلاما مزعجة منذرة بسوء ، فذهبت تحاول العدول به عن الخروج إلى الناس غداة اليوم التالى ، قائلة

له أنها قد سمعت بأن نذرا سيئة قد شوهدت وعلامات شؤم قد رؤيت وأن «لبؤة قد وضعت فى الطريق ، وقبوراً تفتحت فلفظت موتاها، وأشباح جند نارية مريعة قد تراءت فوق السحب متقاتلة ،صفوفا وكتائب، فعل الجند تماماً فى أوضاع الحرب وصورها، وأن الدماء راحت تتساقط على الـكابيتول كالرذاذ متقاطرة، وأن جلبة الحرب وضوضاءها جعلت تدوى فى السماء وأرجائها وأن الخيل صهلت والأموات زفرت وأنت ، وأن الأشباح والعفاريت ذهبت تطوف الشوارع متصايحة زاعقة مولولة »

وأقبلت بورتسيا تذكره بما كان الناس يعتقدونه فى الأزمنة الغابرة ، وهو أنه حين يموت المتسولة والصعاليك لا تنبعث فى السماء شهب ، ولا تشاهد على رقعتها نجوم مذنبة ـ أى ذوات أذناب ـ ولـكن السموات ذاتها تنمى الملوك شهباً منبثقة ، وأضواء متوهجه ولهبا ... »

ولـكن قيصر استخف بنذر زوجه وتشاؤمها وأبى التأثر بها وأنشأ يقول :

الجبناء يموتون عدة مرات قبل آجالهم. والشجعان لا يذوقون طعم الموت إلا مرة واحدة »

وعندئذ تلقى قيصر رسالة من الكهنة والمتطيرين الموكلين بأن يتعرفوا بواسطة طقوس خاصة أنسب الأوقات لتنفيذ جسام الفعال وعظائم الأمور أو أبعدها من الملاءمه ، وفى تلك الرسالة أبلغو قيصر أن اليوم لا يلائم عقد مجلس الأعيان .

وكاد قيصر يستسلم لرجاء زوجه وتوسلاتها المتكررة لولا أن دخل عليه أفراد المؤامرة رهو ديسياس ليصطحبه إلى دار مجلس الأعيان فقص قيصر عليه بعض مارأت « كالبيرتيا » من الرؤى والأحلام، وهو أنها حلمت بأنها رأت تمثال قيصر ينفجر دماً وان عدة أناس من الرومان حداد الشهرة أقبلوا باسمي الثغور يغسلون أيديهم فى ذلك الدم ويغمسونها فيه

وأن كالبيرتيا قد أوجست أن يكون هذا نذيراً بموت قيصر، ولكن ديسياس بعد أن سمع ذلك علله بتعليل بارع وحمله على معنى لطيف ، فقال :

« إن انبجاس الدم من تمثالك عيونا متفجرة واغتسال عدة أناس من الرومان فيه باسمين يشير إلى أن روما العظيمة سوف تستمد منك دماً جديداً منعشاً »

وأردف قائلا : إن مجلس الأعيان قد قرر عرض تاج الملك على قيصر فى هذا اليوم بالذات، ففيا به بحجة أن زوجه رأت حلما سيئا يروح إبعد ما يكون من الكياسة والذوق .

ومن ثم ذهب قيصر فى حرسه الذى جاء ليحف من حوله ، وما درى أن هذا الحرس يجمع أولئك الذين انتووا القضاء على حياته

وفى ذلك الوقت كانت قد سرت إشاعات وبدرت بوادر تنم عن المكيدة المدبرة .

وكان فى روما فيلسوف من المعتزله ، يدعى أرتميدوراس لعله كان قد أدرك حاجة العصر وفطن الى مقتضيات الزمن وتوقع ماقد يعقب موت قيصر من الخطوب والمحن فسعى جهده فى تحذيره خلال كتاب أعده ، وقد ذكر له فيه أسماء زعماء المؤامرة ، ونبأه بأن أولئك الرجال قد جمعهم فكر واحد على مناهضة قيصر ومقاومنه .

وانتظر ارتميدوراس فى الطريق حتى يمر قيصر فى غدوته إلى الكابيتول فيدفع بالكتاب اليه ، فما ان مر قيصر حتى تقدم إليه فدفع فى كفه كتابه ، ولكن بادره ديسباس مستبقاً بكتاب آخر ، فأصبح هذا مقدماً وذاك من تحته ، وذهب نذير أرتميدوراس سدى

ولما وصل قيصر إلى الكابيتول انتحى، أحد المتآمرين بمارك أنتونى ناحية متظاهراً بأنه يريد استشـــارته فى شأن خاص بينما تقدم آخر إلى قيصر بعريضة ليشغله بها. وقد التمس فيها العفو عن عين من الأعيان كان منفياً فى البلاد...وفيما كان قيصر يجيب على العريضة ، دلف نحوه المتـــآمرون متظاهرين بأنهم بريدن تأييد صاحب العريضة فى مطلبه . وباشارة من كاسكا اندفعوا نحو قيصر فاهووا عليه طعنامتواصلا ليذيقوه الموت . وعلى طعنة بروتس . أرسل قيصر صيحة عتب وسقط قتيلاخامد الأنفاس .

وحار المتآمرون بعد ارتكاب فعلتهم ماذا هم صانعون . إذ خشوا غضب الشعب وتلفتوا حولهم للبحث عن مارك انتونى . ولـكنه كان قد فر الى بيته هارياً من خيفته على حياته ، ووقف الأعيان الذين لم يأتهم من قبل علم بهذه المؤامرة مشدوهين تدور أعينهم فيما حولهم مروعين . وكان فريق كـبير منهم . بل لعل أكثرهم ، أولياء لقيصر وعلى صلة حسنة به فلم يتبينوا هل فى نية هذا الجمع المسلح من القتلة أن يقتلوا قيصر ومريديه كما قتلوه ، ولهذا راح بروتس يحاول تهدئة روعهم قائلا أن لا أحد منهم

يراد بسوء وأن جريرة قتل قيصر لا يتحملها غير قاتليه .

وأخذ بروتس يفكر كذلك فى تأثير فعلتهم فى نفوس الشعب إذ من المرجح أنهم سوف يقابلون بالاستياء قتل بطل أصاب عندهم الحب والاعزاز وسوف يثـأرون من قتلته : فلتهدئة خاطر الشعب واكتساب رضاه إذا امكن رأى بروتس أن يذهب المتآمرون فى الحال إلى السوق العامة ومواجهــة الشعب وبسط الأسباب التى حدت بهم إلى تنفيذ فعلتهم . وبينما هم يتشاورون إذ أقبل رسول من قبل مارك أنتونى يبلغهم عقه أنه يرجو منهم أن يعدوه بأنهم غير قاتليه وأنه على استعداد للموافقة على قتلهم قيصر إذا ثبت أن الخير كان فى قتله ، فأجاب بروتس على الرسالة باعطاء انتونى الأمان فلما رجع هذا اليهم وطلب فى بشجاعة اليهم أن يقتلوه إذا شاؤوا بجانب قيصر ، وعده بروتس الأمان والمودة فصافحهم واحداً بعد واحد علامة القبول وقال .

ــ أننى أودكم جميعاً، وأحبكم جميعاً ، على رجاء واحد،وهو أن تبينوا لى علام وفيم كان قيصر خطراً » .

وعليه إجابة بروتس إلى سؤاله حين طلب السماح له بأن يتحدث إلى الشعب على رؤوس الاشهاد عند تشييع جنازة قيصر ، ولكن كاسياس وكان يستريب بانتونى همس فى أذن بروتس معارضا فى الإستجابة إلى ماطلب ولكن بروتس أجاب بأنه سيتقدم بنفسه أولا فيخطب الناس ويشرح لهم الأسباب التى دعتهم إلى تنفيذ فعلتهم ، وراح يستنزل من أنتونى الوعـــد بأن لايذكر قتلة قيصر بسوء .

ولكن ما كاد انتونى يخلو إلى نفسه . حتى ثارت ثائرة نفسه على القتلة حين وقف على مشهد من جثة صديقه وأنشأ يقول :

« أيتها القطعة الدامية من الصلصال ، اغتفرى لى حلمى ورقتى وتوددى إلى هؤلاء السفاكين ، فأنت رفات أنبل رجل حوته الحياة على مر الزمان » .

وانثنى يصف الحروب الداخلية والفتن والنكبات والويلات التى لاشك فى وقوعها بعد مماته .

وراح يتخذ كذلك إجراء حاسماً وذلك أنه كان لقيصر فى ذلك العهد ابن أخ يدعى أوكتافيوس يقيم غير بعيد من روما ، وقد

عرف على حداثة سنه بعلو همته وعظيم مقدرته ، فبعث انتونى سراً إليه ينبئه فيها بما جرى ويناشده أن يستعد بجيش معه .

ومالبث رفات قيصر أن حمـــل إلى الساحة العمومية وبدأ بروتس يخطب الشعب ، شارحا فى منطق سديد ؛ وقول رصين ، كيف أنه ؛ على الرغم من صداقته لقيصر ، قتله ، لأنه كان أخا مطامع ، قائلا « لا لأننى أحببت قيصر أقل مما كنت أحب ، ولـكن لأننى أحببت روما أكثر مما كنت لها محبا » .

واثنى يسأل سامعيه : أفـكنتم تفضلون أن يبقى قيصر حياً وتموتوا جميعاً عبيداً . على أن يموت قيصر لتعيشوا أنتم أحراراً ؟

واستطرد يقول : « أنه لا ينـكر أن قيصر كان ناجحا وشجاعا وأنه كان صديقاً له كريماً عليه . ولـكن ينبغى للمرء أن يقتل حتى أعز أحبابه من أجل روما وخيرها فى سبيل انقاذها من طغيان الطغاة وجبروت المتجبرين » .

وما كاد ينتهى من خطبته وسط هتاف الشعب ومظاهر إستحسانه حتى وصل انتونى مع آخرين يحملون جثمان قيصر . فانصرف بروتس بعد أن أهاب بالشعب أن ينتظر حتى يخطبهم انتونى .

وحين بدأ انتونى يتكلم ، لم يكن شعور السامعين معه ، ولكنه مالبث أن أبدى براعة عجيبة . ومقدرة مدهشة، فى السيطرة على أذهان العامة ، واختلاب الباب الجماهير ، إذ بينما عمد بروتس فى محاولة إقناعهم إلى الحجة والمنطق ، ذهب هو إلى تحريك المشاعر ، وإثارة العواطف فى أنحاء صدورهم ، مردداً القول بأن كل ذنب قيصر وجريمته التى اتهم بها أنه كان « أخا مطامع » وهو الرجل الذى عرفوه منفقاً عن سخاء ، صارفا المال عن بذل لا التماس متعة نفسية ، ولكن التماس خير الشعب ورفاهيته، بل هو الرجل الذى أخلص الود والحب للفقراء من مواطنيه ، والمكدودين من أبناء أمته وأنه الرجل الذى رفض قبول الملك حين عرض فى الملأ ثلاثا عليه .

« أفذلكم دليل طماعيته ، ومع ذلك يقول بروتس أنه كان أخا طمع ! وبروتس رجل شريف . »

ولما رأى انتونى أن كلامه قد بدأ يؤثر فى نفوس سامعيه ، انثنى يقدم أمام أعينهم دليلا آخر على أن قيصر كان أخلص الناس إليهم . وكان ذلك الدليل الجديد ورقة رفعها فى يده وأنشأ يقول:

— إليكم رقا مسطوراً عليه خاتم قيصر في حجرته الخصوصية وتلك هي منه الوصية ، ولو سمعها الشعب ، وأرهف الاذن لما حوت من توصية ، إذ استميحكم عفواً ، ليست لي في قراءتها نية ، إذن لا قبلوا على جثمان قيصر يعطرون جراحه قبلات ندية ، ولتدافعوا يغمسون مناشفهم في دمائه المقدسة الطاهرة النقية ، لا بل لراحوا يلتمسون شعرات من خصلاته لتكون عندهم تذكارات على الدهر باقية . »

فما أن بلغ أنتوني من خطبته هذا القدر حتى كان أفراد الشعب قد ثارت ثائرتهم ، وهاجت حفائظهم وأشتد سخطهم ، على قتلة قيصر الذين مازال انتوني يدعوهم بلباقته وكياسته وبراعته بقوله « الرجال الشرفاء الذين طعنوا قيصر بخناجرهم وسيوفهم .

وانثني يزيد حماستهم اشتعالا ، وغضبهم تأججاً واستعاراً ، يكشف الأغطية عن الجثمان المثخن جراحا مشيراً إلى طعنات الخناجر منه ، مناديا :

« ألا ترون إلى ماصنع الحسود كاسكا بقدة من سيفه ، وهنا

جاءت طعنة المحبوب بروتس ، تلكم هى أقسى الطعنات جميعا واخلاهن من الشفقة والرحمة مضربا »

وأشار إلى جرح قال أنه من خنجر بروتس. وكذلك ما كاد ينجح فى إثارة غضب الجماهير على القتلة حتى عاديسكن من ثائرتهم لحظة ليشير إلى وصية قيصر وعهده ، وراح بعد اصطناع التكره وإظهار التمنع يتلوها عليهم ، فقال أن قيصر فضلا عن توصيته لكل مواطن من أبناء روما بقدر من المال « قد ترك لكم من بعده جميع أراضيه وآجامه وبساتينه التى استنبتها أخيراً على هذه الضفة من التايبر . تركها جميعا لكم ولذريتكم من بعدكم ، جيلا بعد جيل ، حتى تفنى الأرض ومن عليها ، لتكون رياضكم ومناعمكم ومتنزهاتكم العامة . ذلكم هو قيصر . فمتى يأتيكم الدهر بمثله ؟! وأين تجدون له ضريبا ؟ !

فهاج غضب القوم واشتد بهم الحنق فترا كضوا يطلبون الانتقام من القتله ويحرقون ديارهم . وفى طريقهم ، أتوا على شاعر وديع يدعى لسوء حظه «سينا» وكان هذا إسم أحد المتآمرين ، فكان مجرد التشابه فى الاسم لأنه اسم القاتل البغيض ، كافيا عند

الجماهير لصب جام غضبهم عليـــه ، وهو البرىء لاذنب له . فمزقوه اربا .

أما بروتس وكاسياس والقتلة الحقيقيون فقد ترامى إليهم قبل فوات الأوان نبأ غضب الشعب وهياجه ، فدبروا لهم سبيل الفرار من المدينة .

وفيما كانوا مغادرين روما من باب ، كان أوكتافيوس قد دخلها من باب آخر فى حشد مسلح من أتباعه ومن ثم أخذ هو وانتونى يحولان الموقف لمصلحتهما الخاصة ، فقررا قتل كل عضو ذى شأن من أعضاء مجلس الأعيان وكل شخص ذى خطر قد يقف فى طريقهما ، وبعد أن تدانت لهما بالقسوة ، والعنف والعدوان السيادة على روما ، جمعا جيشاً لمهاجمة جيش بروتس وكاسياس فـكان مصرع قيصر بدلا من أن يقضى على الطغيان، سبباً فى قيامه وما وقع إلا ليجلب حكم إرهاب ويسوق طغيانا وعدوانا » .

وأنقضت فترة طويله قبل أن يتلاقى الجمعان . وكان بروتس وكاسياس قد جمعا جيشهما من الأقاليم الشرقية ولبثا ينتظران فى مقدونيا حتى يبدأهما انتونى واوكتافيوس بالهجوم . ولـكن لم

يلبث أن وقع الفشل فى جانب بروتس وصاحبه ودب الخلاف، فقد أبى أولهما جمع المال المطلوب لهذه الحرب بالعنف أو الظلم والارهاق لأنه ماقتل قيصر إلا ليمنع ذلك كله ويحول دونه ، بعكس كاسياس إذ كان عملياً أكثر منه — فلم يكن ليتردد فى إستخدام أية وسائل فى سبيل تحقيق مطلب جرىء وغاية بعيدة المنال .

وفضلا عن ذلك ، جعل بروتس وكان فيلسوفا أكثر منه رجل أعمال وبراعة احتيال ، يصدر قرارات خاطئة فى توجيه سير القتال ، غير مستمع إلى نصيحة كاسياس ، ولا آخذ برأيه .

فكان هذا يسلم له فيما يراه ، بالنسبة لاعجابه ببروتس من جهة قوة شكيمته وضبط نفسه واحترامه للواجبات ، فضلا عن ادراكه أنه أسمى منه قدرا وأعظم منه شأنا .

وأخيراً تدانى الجمعان فى سهول فيليبى بمقدونيا . فحاول بروتس أملا منه فى حقن الدماء أن يعقد اجتماعا للمفاوضة مع قواد جيش العدو . فكان ما أراد ولكن لم تجد المفاوضات نفعاً وتفرق القواد كما أجتمعوا ونشب القتال .

وأشتدت الوطأة على قوات كاسياس فى بداية القتال ،

وبدلا من أن يتقدم بروتس لنجدته أخطأ الرأى بأن أنفذ جناحه للحمل على قوات أوكتافيوس .

وحين وجد كاسياس أن انتونى قد أدرك الغلبة عليه آثر الموت بيده على الوقوع فى قبضة العدو .

وفى الوقت ذاته كان بروتس مندفعاً نحو أوكتافيوس وجيشه ولكن قوات انتونى التى خرجت من المعركة بنصر بعث فيها النشاط . وأرسل فى نواحيها وقدة الحماسة . بادرت إلى نزول الميدان فقلبت مصير القتال ، وغيرت سير المعركة .

ولما رأى بروتس آماله جميعاً قد تحطمت ، ختم حياته بيده .

ولعل بروتس قد تبين له بعد هذا كله أنه بقتل قيصر لم ينقذ قضية الحرية .

ولما وقف أنتونى على جثمان بروتس جاشت نفسه وتأثرت مشاعره فراح يرثيه قائلا :

— لقد كان هذا أنبلهم جميعاً وأسماهم نفساً .

ومافعل المتآمرون الآخرون مافعلوا إلا عن حسد لقيصر العظيم

وموجدة عليه ، أما هو فما أنضم إليهم ، ولا رضى أن يكون فيهم إلا عن رأى أعتقده حقاً ، ولغرض عام فكر فيه ، ومصلحة قومية ابتغاها .

لقد كانت حياته وداعة ولطفا . وكان طيب العنصر ، حتى لتنهض الطبيعة فتهيب بالعالم كله :

« لقد كان هذا رجلا . »

تيمون أثينا

كان تيمون سيداً من سادات أثينا وجنديا مشهوراً ، ورث ثروة عريضة ، وعرف بالغنى وأشتهر بالجود، يفتح أبواب بيته لكل وافد ويرحب بكل مسترفد ، ويحبو بالهدايا أصحابه وعارفيه ويعين المحتاج ويساعد المعوز الفقير .

وكان التجار والباعة يتزاحمون على داره ويظفرون بما يرجون من أثمان أغلب ماتكون أعلى بكثير من القيمة الحقيقية لسلعهم ومعروضاتهم .

وجعل الناشئون من الشعراء والمبتدئون من أهل الفنون

يلتمسون عنده رأيا حسنا عن رواياتهم وتزكيه لالواحهم وصورهم.

وكانوا جميعاً يعود ونغالبا فوق البيمة بأعطية من ذهب وكان أقرانه من السادات والاشراف يظفرون بنصيب وافـر من كرم ضيافته .

وكان العالم يبدو فى عين تيمون المجدود العريض الثراء حافلا بالأخيار والطيبين فالتف من حوله عديد من الصحاب والخلان . وحين تبسم الدنيالنا لايسهل علينا التميز بين الصادقين من الصحابة والخلطاء .

غير أنه كان بين الذين يختلفون إلى حلقة تيمون ويكثرون التردد عليه عدة أناس هم أكثر حبا لما له منهم لذاته ، فمثلا كان منهم « فتتدياس » وهو رجل من أهل المراكز والاخطار ، استقرضه يوما قدراً كبيراً من المال لسداد دين عليه ولـكنه حين أيسر فيما بعد واغتنى عقب وفاة أبيه لم يحفل بالوفاء لتيمون بما عليه

وكان ثم آخرون جعلوا يتقدمون إليه بالهدايا. علما منهم بأنه سيردها بأحسن منها ، ويجيب عليها بطرائف أعظم وأغلى قدراً ،

وقوم لم يستحيوا من ابتزاز المنح والهدايا منه بالملق الماكر ، والمداهنة البارعه ولطف المدخل بالمديح عليه،أو بالإعجاب الخاص ببعض حلية قيمة يطمعون فيها ، أو جوهرة بمدون الأعين إليها .

وكان فيهم فرد واحد من ملازميه كل يوم والغاشين مجلسه ، ليس كمثلهم وشأنه غير شأنهم ، وهو فيلسوف لذاع الحديث ، قاسى التهكم . حريف النكتة ، يرى فى كل أحد منهم سوءاً ، على حين يرى تيمون خيراً ويشهد من أمورهم ودواعيهم ما يعاب بينما لا يشهد هو فيه إلا الفضل والإحسان .

ولم يكن ذلك الفيلسوف يمل الكلام القارس فى حقهم . والحديث الجاف عنهم ، وذكر القبيح من شأنهم ، ولكن أحداً منهم لم يكن يحمل كلامه محامل الجد ، واعتاد تيمون أن يؤنبه على جفوته ، ويعنفه على غلظته .

وعلى مر الأيام أخذت ثروة تيمون الطائلة تتناقص وتقل رويداً رويداً من فرط جوده والحاحه على البذل ، وادمانه الندى . وكان « فلافيوس » وكيل دائرته الوصى الأمين،ومدير أملاكه وثروته المخلص فى خدمته ، كثيراً ما نبهه إلى هذا الأمر وحذره منه ،

ولكن نذره وتحذيراته ذهبت سدى ولم تجد نفعا ، إذ جعل تيمون يقول أنه ما وجد الغنى إلا لاسعاد الناس وأنه ليس أمتع لنفسه ، ولا أبهج لخاطره ، من التوسل بغناه للترفيه عن الغير ونفعهم ، فكان فلافيوس ، الصادق فى محبة مولاه ، يكاد يتميز من الغيظ حتى ليهجم الدمع فى عينيه من فرط الحنق . كلما رأى الكذبة فى مودتهم لمولاه والمللقة له ، والمتهالكين بالمداهنه عليه ، يتناهبون ثروته ، ويستنفدون بسرعة أمواله . وكان يتوقع أن يأتى يوم يتخلى فيه المال والصاحب عنه .

وأتى اليوم المنتظر حقا . إذ راح خرجه يتجاوز دخله ، وجاء الدائنون يستوفونه ما عليه ، ويلحون فى مطالبته بسداد حقهم لديه إذ علموا بما لم يكن لتيمون بعد به علم ، وهو أنه لم يبق من ثروته إلا النزر اليسير فأرادوا أن يستردوا ما لهم ، قبل أن ينفد القليل الذى بقى من ماله .

وحين أمر تيمون وكيله بأن يتخذ التدابير لسداد دينه لهم ، لم يكن ثم مال للوفاء به ، ولا سبيل ميسورة للحصول عليه ، إذ كانت

أملاكه الواسعة قد بيعت أو غلقت [1] أو انتزعت ملكيتها ، حتى أمسى الباقى منها لا يكاد يكفى لسداد النصف من ديونه .

ولكن تيمون لم يغتم ولم يبتئس ، إذ كان يتصور الناس رحماء كراماً أجواداً مثله ولم يكن فى ريب من أن أصدقاءه العديدين سوف يبادرون إلى معونته كما أعانهم من قبل ، بل كان يعتقد أنه ماعليه إلا أن يلمح لهم بحاجته فاذا هم مسارعون إلى تفريج ضائقته .

فلما نبأه « فلاييوس » بأنه قد التجأ إلى بعضهم يسألهم المعونة فرفضوا بخشونة ، وأبو فى غير رفق ، لم يصدق تيمون أن الآخرين سيروحون جحدة كهؤلاء كنودين مثل كنودهم .

ولذلك راح يفاتح بحاجته الذين طالما أغدق عليهم من خيره وبره ، ومكارمه وأياديه ، ويسألهم قضاء طلبه واحداً بعد واحد ، وكان أولهم فى إظهار مبلغ عرفانه لسابق صنائعه ، هو « لوسيللاس »

---

(1) غلقا الرهن غرقا وزن فرح استحق المرتهن وذلك اذا لم يفك الرهن فى الوقت المشروط . وقد نهى عنه ، وفى الحديث الشريف « لا يغلق الرهن »

إذ أوفد إليه تيمون رسولا يبلغه أنه يريد قرضا من المال فلما مثل الرسول فى حضرته بادر إلى خاطره أنه قد جاء يحمل إليه هدية جديدة من قبل مولاه ، فتلقاه بلهفة ودعا له ولمولاه أحسن الدعاء وسأله عن الصحة والسلامة . ولكن ما كاد يعلم أنه جاء مستقرضا حتى تغيرت لهجته ، وتبدلت نغمته ، فادعى أنه كثيراً ما حذر تيمون عاقبة سرفه ، وبصره بخاتمة تبذيره ، وإن كان يتغدى عنده ويتعشى بقصد تحذيره ، من الاسراف فى النفقة والامعان فى البذل والعطاء ، فما كان تيمون يستمع إليه ولا أصغى لنذره .

وحاول لوسيللاس أيضا أن يرشو الخادم لكى يقول لمولاه حين مآبه إليه إنه لم يجده فى داره .

فكان مما قاله له :

« إنك لتعلم جد العلم وإن جئت إلى مستقرضا . إن هذا الوقت ليس وقت أقراض ، وبخاصة إذا كان القرض لمجرد الصداقة فحسب دون كفالة ، وبلا ضمان ، فاليك ثلاثة دراهم ، هى لك أيها الفتى الطيب . فاغمز بطرفك وقل إنك لم ترنى والسلام »

ولكن الخادم لم يغمز بطرفه مرتضيا هذه الدناءة بل رمى بالدراهم فى وجهه وخرج يستشيط غضبا .

وأرسل تيمون أيضا رسولا إلى لوسياس وكان ممن أفاض عليه من قبل الخير وأغدق ، ولكن الرسول لم يعد بأحسن مما عاد صاحبه .

وكان بعضهم قد نبأ لوسياس برفض لوسيللاس معونة تيمون فاستشعر العار من كفرانه وأبدى الاشمئزاز من جحوده . وقال لو قد أرسل إلى لما بخلت عليه بما سألنيه ، وفيما كان ماضيا فى هذا القول ونحوه إذ أقبل غلام تيمون يرجو منه قرضا .

فما أن سمع لوسياس ذلك حتى نسى تصريحاته الطيبة وبادر بأول عذر خطر له فقال :

« أنه قد أنفق كل ما كان عنده فى شراء بيت ، فهو لذلك يأسف جد الأسف لعجزه عن خدمة تيمون »

وانثنى إلى الرسول يقول :

— أبلغه عنى أننى أعد عجزى عن تحقيق رجاء رجل شريف مثله أسوأ ماوقع لى من ألم ، وشد مانزل بى من مصاب . . »

وكان تيمون قد أنقذ « فنتدياس » من السجن فى يوم من الأيام لدين لم يف به ، فلما بعث يستقرضه رفض أن يمد إليه يد المعونة على فرط ثرائه ، وعريض غناه .

وكان آخر من سألهم تيمون هو « سمبرونياس » فادعى أنه قد أهين ومست كرامته ، لأن تيمون جعله آخر من يفاتح فى حاجته وإن كان فى مقدمة من تلقوا عطاياه.

وهكذا ابدلا من أن يأتى أصحاب تيمون السابقون إليه ليساعدوه عمدو الآن إلى تجنبه ، وعملوا على تحاميه ، فلم تعد داره تزدحم إلا برسل التجار الذين ابتاع تيمون منهم سلعا ثم لم يستطع الوفاء بأثمانها ، وإلا من الذين أقرضوه أموالا بالربا الفاحش ، فجاؤوا يتصايحون مطالبين بها ، وحل محل المديح والملق ، الالحاف فى المطالبة والقسوة فى استنجاز الأداء ، حتى لم يكن تيمون يستطيع دخول بيته أو الخروج منه ، إذ ما كان ليلقى فى الروحة والغدوة إلا مطالبا بعد مطالب . .

ولكن ظهر فجأة أن حاله قد تغيرت ، والحظ معه قد تبدل ، أذ أعلن السيد تيمون عن إقامة مأدبة عظيمة ومضى يلح فى دعوة جميع أضيافه السابقين .

ولبى الأضياف الدعوة ، وفيما كانوا جلوساً إلى المائدة وقد شهدوا صحافاً عديدة من الأطعمة مغطاة بأغطيتها تحمل إليها متوالية

جعلوا يقولون فيما بينهم : « لم يكن تيمون إذن يريد منا استقراضا غير الضحك منا ، والاستهزاء بنا » فأنشأ كل منهم فى أثر صاحبه يلقى خطابا مستفيضاً أمام تيمون مليئاً بعبارات الأسف على أنه تلقى طلبه فى وقت لم يكن المال عنده ميسوراً حاضراً ، وإلا لتقدموا إليه طبعاً بما سأل ، فنبأهم تيمون بأن لاعليهم من ذلك وأن يريحوا من هذا الأمر أذهانهم لأنه قد نسيه بتاتاً .

وعليه اتخذ المدعوون مجالسهم حول المائدة وقد سرهم أن ظفروا منه بصفحه عنهم بهذه السهولة العجيبة ولبثوا فى لهفة يترقبون أن ترفع الأغطية عن هذه الأوعية والصحاف التى تتصاعد منها الأبخرة

وعند ذلك دعا تيمون الآلهة أن تجزى كل نفس بما تستحق وأن تحرم من لايستحق شيئاً . فبدت الدهشة على وجوه المدعوين وظهر الارتباك عليهم ولكنه لم يلبث أن أبان عن مقصده . إذ صاح بهم قائلا وقد شهدهم يرفعون الأغطية : « أرفعوا الأغطية أيها الكلاب والعقوا ! »

ياللعجب مما رأوا !

لم يجدوا فى تلك الأوعية شيئاً غير ماء ساخن !

فحملقوا الأبصار مبهوتين .

ولكنه تناول وعاء منها فرفعه بيده فقذف به فى وجوههم وهو يدعوهم « الأصدقاء ولكن بأفواهم » ، « الصحاب ولكن بقلانسهم المرفوعة ، وركبهم الراكعة » « وعبيد المال ، والمفتونين بالغنى ، وطفق يسميهم بأسماء أخرى مماثلة ، وينعتهم بنعوت محقرة ساخرة وطردهم من داره وهو يقذفهم بالصحاف ويرميهم بالأوعية حتى لقد كان من عجلتهم أن تركوا خلفهم قلانسهم وأرديتهم ، « فرجياتهم » وكرائم الجواهر والحليات المزدانة بها ـ وهى بلاشك من هدايا تيمون وعطاياه الماضية ـ من فرط الفرح بالنجاة من غضبه والفرار من سخريته .

وكانت تلك آخر المآدب التى أقامها تيمون ونهاية ولائمه ، فقد ودع بعدها أثينا وأهلها ، واعتزل الناس ومجامعهم . وما كان يراه من قبل فيهم محض عشرة طيبة وألفة حسنة ولطفا وإحساناً عاد يلوح له محض جمود وجشع وطمع ولم يعد يطيق عار مجالستهم وخجلة مخالطتهم ، بل لعن المدينة البغيضة وأهلها ، ودعا الآلهة أن تشتت شملهم ، شبابا وشيباً ، وصغاراً وكباراً وتفرقهم كل متفرق .

وتولى عن الناس وانطلق يريد الأحراش ويأوى إلى الغابات فان الوحوش فيها على الأقل ليست فى مثل قسوة الناس .

وفى ذلك يقول :

« سيذهب تيمون إلى الغابات والآكام ، فانه لواجد فى مسارحها أقسى الوحوش أشفق من بنى البشر وأرحم من الأنام ، ألا لعنة الآلهة على أبناء أثينا ، سواء من حوتهم داخل الأسوار . وخارج الأسوار ، آمين يا آلهتى الراحمين الأخيار ، واجعلى مقت تيمون ينمو فيغمر جميع البشر . علية وسفلة والكبار منهم والصغار . »

وحزن خدم تيمون وأفراد حاشيته . والموالى فى بيته ، حزنا صادقا ، حين وجدوه قد فارقهم ، واعتزموا أن يحرصوا على ذكرى أكرم الأولياء وأبر السادات ، حتى لقد قال خادم منهم وهو يشهد الفراغ من حولهم ، ويرى الدار العامرة خلاء : « لانزال طى صدورنا وحول قلوبنا ، نرتدى ثياب الخدمة التى كان تيمون يكسونا بها ويجملنا ، حتى ليلوح على وجوهنا ، أننا لانزال زملاء فى عملنا ، نخدم سواسية فى أحزاننا »

وقبل أن يصرفهم فلافيوس الوكيل من خدمة مولاه قسم بينهم الفضلة الباقية من ماله ! وخلا هو إلى نفسه يفكر فيما حل بسيده، فصح منه العزم على الخروج للبحث عنه ، لأنه لايستطيع احتمال تصوره وحيداً شريداً بلا طعام ولا مأوى ، ولكنه قضى فترة من

الوقت يبحث عنه فلا يجده ، إذ كان مولاه قد خرج ولم ينبىء أحداً بوجهته .

ولكن تيمون كان قد وجد فى الغابة القصية عن أثينا كهفا يأوى إليه وطعاما قليلا مما يتيسر فى الغاب يتبلغ به .

وفى ذات يوم ، بينما كان يضرب بفأسه الأرض محتفرا يلتمس جذوراً . إذ اصطدم الفأس بشىء براق صلب فنظر فرآه ذهبا ، أى والله ذهبا وفراً كثيراً . أو كومة من ذهب نضار لعله لبخيل جمعه ثم جاء فدفنه فى ذلك الموضع .

ولكن مشهد هذا الكنز العظيم لم يبعث فى نفسه فرحا ، بل بالعكس عاد يذكره بكل ماغرس المال فى نفوس البشر من جشع وما أقام بينهم من نزاع وصراع . . وما ركب فى طباعهم من دناءة ولؤم . . فقال لنفسه لخير أن يبقيه حيث وجده ، لا نفع منه ، من أن يخرجه من مرقده فيغرى الناس بالشر ويدفعهم إلى الإثم

ولكن مالبثت أن دارت فى خاطره فكرة أخرى ، وهى أن يخرج هذا الذهب من مخبئه ليحدث الأذى بين الناس ! ومن ثم ترك بعضه ظاهراً للعيان .

وفيما كان منشغلا على هذه الصورة باستخراج بعض ذلك الكنز الدفين . إذ طرقت سمعه من بعيد أصوات موسيقى عسكرية ومواقع أقدام جنود فى أثناء السير . وما لبثت شرذمة من الجند أن اقتربت منه وعلى رأسها قائد يدعى « السبيادس » كان تيمون يعرفه حق المعرفة فى أيام أثينا الخاليات .

وكان السبيادس هذا قد قاد فيما مضى جحافل أثينا فزحف على أعدائها ولكن مجلس الأعيان فيها قابل إحسانه بسوء . . وعامله بكفران لفضله وجحود : فانقلب على قومه . . ووجد على وطنه . وجاء الآن يزحف على أثينا . ولكن كان يعوزه المال ليدفع منه أجر جنوده .

فلم يتردد تيمون فى إعطائه بعض الذهب الذى اكتشفه منذ لحظة ، لأنه لم يكن يتمنى من شيء أكثر من أن يجلب هذا المال الويل والثبور ، والدمار والخراب ، على أهل أثينا ، فقيرهم والغنى ورجالهم والنساء ، وشبابهم والشيب سواء .

ولما سأله السبيادس هل من شيء يريد منه قضاءه لقاء هذا المال الذى خباه به ، قال إنه لا يريد إلا السوء والشر للناس جميعا .

وأخذ السبيادس المال وانصرف

وما هى إلا فترة قصيرة حتى شاعت الأقاويل عن مقر تيمون والموضع الذى أوى إليه فكان أول من جاءه بعد السبيادس الفيلسوف الساخر « أبيمانتاس » وقد ساقه الفضول إليه ليرى هل يعيش تيمون المعيشة التى يعيشها هو ويحياها إذ اعتاد ابيمانتاس أن يعتقد فى الناس السوء ويتحدث به عنهم ؛ ولكن ينتفع بما فى الامكان أن ينتفع به منهم ، بعكس تيمون ، فلم يكن ، مع اعتقاده السيء ، يريد الاختلاط بهم أو يطيق العيش فيهم .

فحاول أبيمانتاس إقناع تيمون بترك هذا البلاء الذى فرضه على نفسه واستغلال الأشرار والأوغاد لخيره وفائدته ! فان ذلك هو ماينبغى أن يقابل به أولئك الذين استغلوه من قبل لمنافعهم ومآربهم ولكن تيمون أبى فى سخرية أن يخضع لأحد ما أو تكون له بالذين كرههم وسئمهم أية صلة فعده أبيمانتاس مجنونا بايثاره هذه العزلة المضنية والوحدة الأليمة ، وعده تيمون نذلا بالتجائه إلى الذين يزدريهم ، والتماس حاجته عند الذين يحتقرهم .

ثم طرده من حضرته .

وجاء من بعده بعض اللصوص لافتقاد الذهب فأدهشهم تيمون

بأن حملهم إياه وطلب إليهم أن يفعلوا به ما استطاعوا من أذى وشر وسوء .

وجاء بعد ذلك فلافيوس ، فان حبه لمولاه واخلاصه ساقاه إلى البحث عنه والتقدم إليه ليعيش معه بمثابة خادمه ، فلما رأى مولاه وكان عهده به الرافل فى المطارف ، المفعم النفس حياة ومرحاً ، عارياً مهموماً ، زرى الهيئة ، لم يتمالك دموعه .

ولكن تيمون لم يشأ معرفته ، ثم أبى كذلك أن يتقدم بثه عن حزنه وتفانيه ، إلا أن فلافيوس أكد له أنه لا يبغى منه شيئاً غير أن يبقى معه ويخدمه ويلازمه . وكان منطقه من الجد ، ومحبته من الوضوح ، بحيث لم يسع تيمون أخيراً إلا الاقرار بأنه قد وجد واحداً فى الدنيا كلها أمينا . ولكنه وقد نفى من قلبه كل أثر للحب لبنى جنسه ، فلن يتقبل عطفاً ولا شفقة من وكيله وإنما راح يعرض عليه ذهبا ليثرى ويغنى إذا شاء .

ولما وجد فلافيوس أن رجاءه الأخير بقوله : « ناشدتك يا مولاى إلا ما تركتنى أمكث معك ، وأرفه عنك » لم يؤثر فى نفس سيده ، انصرف المسكين حزيناً مغموما .

غير أنه بعد أيام عاد مصطحباً رجلين من كبار شيوخ أثينا وأعيانها ، لم يقدما عن فضول يحدوهما إلى رؤية تيمون ومشاهدة حاله ، ولا عن رغبة فى مد يد المعونة إليه ، بل بالعكس ، لكى يطلبا إليه المعونة لأثينا فى محنتها والخطب الذى ألم بها ، فقد كان السبيادس يومئذ قد أصبح بجيشه على أبوابها وأمسى يهددها بالنار والسيف ليدمرنها تدميراً ، ولم يكن فى المدينة من قائد عظيم يستطيع الوقوف فى وجهه ، أو يقوى على مقاومته ، وقد تذكر أعيانها فى هذه الطوارىء كيف قاد تيمون من سنين عدة الجيوش وغلب الأعداء ، فجاء هذان إليه اليوم يسألانه النجدة ! وسوف تغدق عليه ألقاب الشرف وأكداس المال ، ويعطى السلطان المطلق إذا هو قبل تولى القيادة .

إن الذين عاملوا تيمون بالأمس فى ساعة عوزه ، وأيام محنته وإملاقه بجحود سافل ، وكنود حقير ، هاهم أولاء اليوم فى شدتهم وبلواهم يرجون معونته . .

ولكن تيمون أغلظ لهما فى الجواب ووجه إليهما رداً مراً خالياً من كل عاطفة قائلا إنه لن يحرك أنملة واحدة للدفاع عنهم

وإنه : « إذا قتل السبيادس قومى ، فأبلغوه عن تيمون أن تيمون لا يبالى ! » .

واسترسل يقول : « وإذا أراد أحد من أهل أثينا وبنيها أن يتخلص من آلامه ، وينجو من متاعبه فليأت إلى هنا قبل أن يدرك الفأس شجرتى هذه وليشنق نفسه فى جذعها » . . وانثنى يشير بأصبعه إلى شجرة قائمة عن كثب كان معتزماً من قبل أن يحطمها ليتخذ منها وقودا ! .

فذهب الشيخان من حيث أتيا . .

وكذلك تركت المدينة تحت رحمة السبيادس ولكنه مع ذلك لم يدعها للسلب والنهب ولم يتركها للذبح والقتل وسفك الدماء وإنما استمع إلى نداء شيوخها ، واستجاب لدعاء أعيانها ، ووعد أن لا ينال بالعقاب إلا المسيئين والذين تثبت عليهم معصية القوانين . .

واتفق قبل ذلك بيوم أو بعض يوم أن مر أحد جنود السبيادس غير بعيد من كهف تيمون فى الغابات حذاء شاطىء البحر فوجد قبراً قائماً على ربوة تشارفه وشهد عليه كلاماً منقوشا

ولما لم يتمكن من قراءته راح ينسخ واحتمسه كلما يخائل الصورة المنسوخة إلى قائده ، فأدرك السبيادس من قراءتها أن القبر قبر تيمون ، إذ يقول النقش القائم عليه : « هنا أرقد أنا تيمون ، الذى كان يمقت الأحياء جميعا .. » وقد شفع تيمون هذا باللعنة على الناس أجمعين . .

وما يدريك لعل تيمون لو أن رأيه فى الناس فى أيام نعماه كان أقل حسناً مما رأيت ، فأحبهم أكثر مما أحب ، لراح رأيه فيهم أقل سوءاً مما شهدت ، حين خانوا عهده، وغدروا به ، ولكرههم أقل مما كره ..

حلم ليلة صيف

جرت العادة فى أثينا القديمة ، كما جرت فى غيرها ، على أن يكون الرأى فى تزويج الفتاة واختيار قرينها ، لأبيها عميد الأسرة ، وشيخ العشيرة ، وكان فى أثينا كذلك قانون يجيز للوالد إذا شاء قتل ابنته إذا هى أبت الزوج الذى اختاره لها .

وحدث فى الوقت الذى ابتدأت فيه هذه القصةأن كان الدوق

ثيوس أمـير أثينا وحاكمها يوشك أن يتزوج بهيبوليتا ملـكة الأمازون — النساء المحاربات فى العصور القديمة — وكان الدوق فى شـغل بإعداد معدات الاحتفال بهذا الزواج وألوان القصف والفرح واللهو التى تجتمع فيه ، فجاءه شيخ من أهل المدينة يسمى وكان يدعى «إيجيوس» يرفع إليه شكاة له من أمر ابنته «هرميا» أبت القران بالزوج الذى اختاره لها ، وهو فتى يدعى «ديمتريوس» بدعوى أنها لا تحس له حبا ، وإنما تحب شابا غيره يدعى «ليساندر» يبادلها الحب ولـكن إيجيوس أبى أن يحفل بهذه الحجة أو يستمع لهذا الشفيع وراح يطالب بأحد أمرين ، إما الزواج «بديمتريوس» وإما الموت طبقاً للقانون . .

فجعل الدوق يذكر هرميا بواجب الطاعة لأبيها ولـكنها أبت الإذعان لنصحه والتسليم بحجته ، فقد كانت تحب غيره ، كما احتجت بأنه قد ظفر بحب هيلانة صديقتها ، فليقترن بها .

وكان الدوق أرحم من القانون فحكم فى هـذه القضية بأن تمتثل هرميا للقران من ديمتريوس أو تقضى بقية العمر فى دير بعيدة من بيت أهليها مقصية عن صاحبها ، فى معزل عن العالم الخارجى وأهله .

ولم يكن قد بقى على احتفال الدوق بزواجه سوى أربعة أيام فأمهلت هرميا تلك الأيام الأربعة ريثما تعلن جوابها .

فذهبت هرميا إلى حبيبها ليساندر من فرط بلواها ، ترجو عنده العون والسلوة ، فراحا يرسمان معاً خطة للفرار من قسوة أبيها وجفوة القانون . .

وكان لليساندر عمة غنية وهى أرملة لم ترزق بنين ، وتقيم بموضع على مسيرة عشرين ميلا أو قرابتها من أثينا ، لا تمتد إليه سطوة قوانينها فقال ليساندر لحبيبته : « فى وسعنا أن نذهب إلى بيتها فنقترن هناك فإذا حل ليل الغد فتسللى من دار أبيك وخذى الطريق إلى تلك الغابة المعهودة التى طالما لعبنا عندها ورتعنا فى أيام الطفولة ، وهى لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال من المدينة فهناك سألقاك » .

وبينما كانا يدبران الأمر على هذه الصورة ويفكران فى إعداد الخطة إذ وافتهما (هيلانه) وكانت صديقة هرميا الحميمة وخليلتها الأمينة فكاشفاها بخطتهما ، ولكن هيلانة بدلا من أن تحتفظ بسرهما راحت فى حماقة تبوح به لديمتريوس لأنها تحبه ، وقدفعلت ذلك على أمل أن يلحق ديمتريوس بخطيبته هرميا فى الغابة ، فتذهب هى فتلتمسه فيها .

وكانت الغابة التي سيذهب إليها أولئك الأربعة مغشى الجان ومسكنها المحبوب . فيه تقيم ملاعبها فى منتصف الليل ، وترتع فى مسالكه ومنافسه .

ولكن حدث منذ قريب أن خلافاً شجر بين ملكها أو بيرون وملكتها تيتانيا . فأفسد عليها مزاجها ، وأحال إلى أحزان أفراحها ، وجعلها من الخوف تبادر إلى الاختباء كلما قام الشجار بينهما وجرى النزاع .

وكان سبب الخلاف غلاما صغيراً عزيزا كانت الملكة قد سرقته من مرضعته عقب وفاة أمه وكانت هذه صديقتها ، فجاءت تيتانيا به إلى الغابة ليكون وصيفاً لها ، فأراد أو بيرون أن يتخذ الغلام لنفسه ولكن تيتانيا أبت أن تتخلى عنه له .

فى الليلة التى كان العاشقان سيجتمعان فيها عند الغابة إتفق أن تلاقى الملك والملكة فى حاشيتهما من الجنيات والجان ، فعادا يشتجران على الغلام وطفق أو بيرن يحاول إقناع تيتانيا بتسليم الغلام إليه ولكنها أبت الاستماع إلى حججه ولم تستجب لشفاعته افترقا مدة أخرى على غير تراض ، وراح أوبيرون يرسم خطة

لحملها بالأذى والتعذيب على إطاعة رغباته .

ولتحقيق هذه الغاية دعا إليه عفريتا من الجن معروفا بالمرح والنزوع إلى الشر والأذى ، يدعوه الجن « بك » أو روبين الأليف . وكان من عادته أن يجد السرور فى إبتكار سائر أفانين العبث والدعابات العملية للعبث بالقرو بين السذج والفلاحين البسطاء فيروح يحيل لبنهم خاثراً أو ينزع القشدة عن سطحه أو يقلب مقعد عجوز وهى تهم بالجلوس عليه ونحو ذلك من ضروب المجانة وصنوف العبث . واعتاد أن يقضى طلبات أوبيرون وحمل رسائله.

فلما مثل بين يديه ناداه قائلا : أقبل يا بك واستمع لما أريد . أذهب فأتنى بالزهرة التى يسميها العذارى « الحب بلا عناء » .

وكان عصير هذه الزهرة الصغيرة الارجوانية إذا قطر منه على جفنى النائم يورثه فجأة عند اليقظة الحب لأول شىء يفتح عليه عينيه .

واسترسل أوبيرون فى قوله : « وذلك لأنى أريد أن أسكب قطرات من عصير هذه الزهرة على جفنى زوجتى تيتانيا وهى نائمة، على أن يكون أول ما تقع منها العين عندما تستيقظ قرداً غليظا سمجا أو نسناسا دائب الحركة لأنها ستحب أول مخلوق تفتح عينيها

على مشهده ، وأن يكن ليثا أو دبا وسأحملها ، قبل أن أزيل هذا السحر بسحر آخر أعرفه على تسليم ذلك الغلام ليكون لى وصيفا

فانطلق « بك » يتلمس الزهرة المطلوبة إذ كان هذا النوع من المهمات والمشاوير هو الذى يجد المتعة فيه والسرور منه .

وفيما كان أوبيرون يرتقب عودته إذ دخل الغابة ديمتريوس ليبحث عن هرميا وجاءت فى أثره هيلانة تلتمسه ، فجعل أوبيرون يراقبهما ويتسمع على حديثهما ، إذ كان فى أمكانه أن يتمثل للناس بشراً سويا .

فسمع ديمتريوس يؤنب هيلانة على اقتفاء خطواته قائلا : لست أحبك فلا تتبعينى فانصرفى ولا تعودى من الآن إلى إقتفاء أثرى .

فجعلت هيلانه تذكره فى رفق بأنه كان فيما مضى قد باح لها بالحب وكيف أنها على الرغم من جفوته قد أقامت على حبه وأنها سوف تتبعه سواء أراد أو لم يرد فغضب ديمتريوس وتولى هاربا منها بين الأدغال وهو يؤمل أن لا تتبعه إليها ولكنها إنبعثت مع ذلك فى أثره تشق بين الشجر طريقها مطاردته .

ورآها أوبيرون وهى تختلف بين ألفاف الشجر فى الغابة فخولته الشفقة عليها فى بلواها وصحت منه النية على مساعدتها واعتزم أن يستخدم رقية الحب التى عهد إلى العفريت « بك » أن يوافيه بها ليجعل ديمتريوس يقع فى حب هيلانة .

ولذلك حين عاد « بك » إليه بالرقيه المنشودة قال له : « اذهب ابحث خلال هذه الأيكة تجد غادة أثينية تحب فتى مزهوا عليها مستخفا بحبها فاقطر من عصير هذه الزهرة على عينيه ، واعمل على أن يكون أول وجه يفتح عليه ناظريه هو وجه تلك الغادة ، وستعرف الرجل من الهندام الاثينى والذى يلوح عليه » .

فانطلق « بك » لتنفيذ هذه المهمة الجديدة . ولكن أوبيرون كان قد احتفظ ببعض عصير الغرام الذى أحضره العفريت إليه فراح يفتقد تيتانيا ويبحث عنها ، وإن لم تشهده ، وهى تعين لجنياتها خدماتهن الليلية ، فمنهن من يستحضرن أجنحة الخفافيش ليصطنعن منها أردية لهن ، وأخريات يقتلن السوس والآفات التى فى أكمام الورد ، وبعضهن لطرد البومة وإبعاد نعيبها ، فى أثناء نوم تيتانيا ووسنها ، وأبقت بعضهن بجانبها ليغنينها غناء

رفيقاً حتى يأخذ الكرى بمعاقد جفنيها .

ولما هبطت تيتانيا وادى الكرى تسلل أوبيريون إليها فعصر برفق الزهرة فوق جفنيها الوسنانين وهو يقول. «ماتشهدين حين تستيقظين ، هو فعلا الذى تحبين » .

وتركها وانصرف .

والآن نسأل ماذا صنع القدر بهرميا وليساندر طيلة هذه الفترة ، لأن ديمتريوس وهيلانة إنما قدما إلى الغابة بسبب الخطة التى كانا قد دبراها للاجتماع فيها .

وصلت هرميا إلى الغابة كما كان الاتفاق فتلاقت فيها و ليساندر ليأخذها إلى دار عمته ولكنهما ضلا وسط الآكام طريقهما ومالبث الإعياء أن أدرك هرميا فلم تستطع مواصلة المسير وإنما تهالكت على جسر هناك يكسوه العشب اللين بينما رقد ليساندر فوق الثرى غير كثب منها .

وضرب الله على آذانهما فذهبا فى ثبات عميق .

وأتى عليهما العفريت . « بك » فى ذلك الموضع بعد البحث عنهما فى خـــلال الغابة وآجامها ، وهو المتلهف على تنفيذ أوامر أوبيرون ومشيئته .

وكان ليساندر مرتديا ثيابا أثينية وهرميا النائمة عن كثب منه من عذارى أثينا وبناتها ، فأدرك « بك » بالطبع أن هذين هما الفتاة والفتى المستخف المتكبر الذى أنفذه مولاه للبحث عنه فبادر إلى سكب عصير الغرام على جفنى ليساندر وانصرف مسرعا .

ولو كانت عينا ليساندر وقعتا على هرميا حين استيقظ لكان أحب التى هو لها محب ، فما فى ذلك من بأس ، ولكن اتفق أن أدرك التعب هيلانه وهى تطارد ديمتريوس وتلاحقه فوقفت عن السير بالموضع الذى كان ليساندر وهرميا نائمين عنده ، ورقدت فوق جسر غير بعيد من ليساندر فلم تبصره لأن الظلام كان سائداً والحلكة مخيمة، وهكذا كان أول نظرة له حين استيقظ قد استقرت عليها . بل هكذا جعلته رقية السحر ينسى حبه لهرميا ويذهب فجأة حبه لهيلانة بدلا منها .

ولكنها حين بدأ يكلمها بلغة الحب ويتحدث إليها حديث الود والحنان ظنت أنه يهزأ بها إذ كانت تعلم أنه حبيب هرميا لا حبيبها ، فتألمت وغضبت مما خالته هزؤاً وتراءى لها سخرية ، وانطلقت عنه مبتعدة ، ولكنه ذهب فى إثرها تاركا هرميا وحدها

فلما استيقظت هذه بعد لحظة مفزوعة مروعة من أثر حلم اليم رأته فى نومها وأرسلت عينيها فيما حولها تبحث عن ليساندر ونحن تاركون لك أن تتصور مبلغ الدهشة التى استولت عليها والألم الشديد الذى انتابها ، حين بدا لها أن حبيبها قد ذهب عنها

فتولت هائمة على وجهها فى الغابة ذاهلة شاردة اللب تبحث عن ليساندر وتناديه فلا تجده ولا تسمع له صوتاً ، ولا تلقى لندائها ملبياً

وهكذا نرى العشاق الأربعة فى هذه المرحلة من قصتنا أشتاتاً متفرقين فى أرجاء مختلفة من الغابة . فهيلانة الحزينة تبحث عن ديمتريوس ، وليساندر يفتش الغاب عن هيلانه ، وهرميا تفتقد ليساندر .

فلندعهم لحظة لنعود الى حديث الجنيات

لما استيقظت تيتانيا عند الفجر كان أول ما وقع عليه عيناها شبحا غريباً ، شبحاً أدنى شبهاً إلى صورة الحمار ، وهو الذى ستقع الملكة تيتانيا فى حبه بفعل رقية السحر وتأثيرها

- ياللعجب ! كيف اتفق هذا الأمر الغريب ؟

وكان قد حدث قبل ذلك ببضعة أيام أن كان بعض العمال السذج فى المدينة يعدون العدة لتمثيل رواية أمام سيسيوس فى يوم عرسه ، وهم بين نحاس وحائك ونساج ونجار ومن لف لفهم . وقد جاءوا باكرين فى ذلك اليوم الموعود إلى الغابة للتدرب على أدوارهم فى الرواية — البروفات — إذ كانوا كما هو المنتظر غير حاذقين للتمثيل ولا هم من أهله ، وإن كانوا قد اهتموا له واتخذوا الأمر جداً .

وبينما كانوا يتمرنون على أدوارهم فى الغابة إذ أقبل العفريت (بك) للعبث بهم بإيحاء من أوبيرون بلا شك وإشارته ، وانثنى يضع على رأس النساج « بوتوم » ، وكان أبجنهم جميعاً وأشدهم تهريجاً قناعاً على صورة رأس حمار فما أن رأى رفقاؤه هـذا المنظر حتى أشفقوا من هذا السحر فولوا الأدبار .

وكان هذا هو الشبح المضحك البعيد كل البعد عن صور الجان وأشكالها الذى وقع عليه ناظر الملكة تيتانيا عند يقظتها .

وكذلك تواتى لأوبيرون الانتقام من تيتانيا بجعلها تحب حماراً ..

واستنشدته فأنشدها وبدت لها أناشيده الخلية من النغم ، السقيمة لا طرب فيها ، شجية عذبة الأغاريد ، وأمرت وصيفاتها بأن يحضرن له مناً وتوتا ويلبين جميع حاجاته وينفذن كافة مشتهياته بل راحت بيديها تصطنع إكليلا من الزهر فوضعته فوق رأسه أو رأس الحمار الذى يتراءى به وتناغيه بأغانى الجان لينام على أنغامها ..

وبينما هى على هذه الحال تتلطف لهذا المخلوق الضحكة[1] السخرة وتدلله جاء أوبيرون يؤنبها على هذا المسلك المعيب الذى لا يخلق بجنية مثلها ، فاستحيت واستشعرت الذلة والخجلة حتى لم تتردد فى تسليم الغلام الغر الذى كان سبب ما جرى بينهما من شجار ونزاع طويل .

ولما قضى أوبيرون على هذا النحو حاجته ، وحقق غايته ، أزال عنها تأثير السحر بعشب آخر . فما لبث النساج (بوتوم) أن بدا لها سمجاً بقدر ما كان يلوح لها جميلا غريب الجمال حين أحبته.

---

(١) الضحكة على وزن سفرة هو الذى يضحك الناس منه . والسخرة مثلث لمن هو موضع السخرية أو «السخرة»

وعند ذلك ترك الجان ذلك المسكين يتلمس طريقه عائداً إلى رفقائه الحقيقيين ، وهو فى ذهول ودهشة من هذا الحادث الغريب الذى يشبه الأحلام ! . .

* * *

والآن فلنرجع إلى ما كان من عشاقنا الآدميين فنجد هنا أيضاً خطأ وقع ويحتاج إلى من يعالجه وذلك أن العفريت (بك) - كما تذكر - كان قد أخطأ فسكب عصير الغرام على عينى ليساندر فتحول الحب فى فؤاده إلى هيلانة وكان من قبل لهرميا . بينما كان أوبيرون يقصد أن يكون السحر لديمتريوس حتى يبادل هيلانة الحب . .

والآن نقول إن هرميا حين ذهبت على وجهها فى الغابة تفتقد ليساندر الذى تولى عنها ، أتت مصادفة على ديمتريوس وسمعها أوبيرون وهى تتحدث إليه بعنف وقسوة متهمة إياه بأنه هو الذى سلبها ليساندر ، وتطالبه برده إليها . .

أما ديمتريوس فلم يدر ماذا يصنع إزاء اتهامها فتركها لتواصل بحثها وحدها . .

واعتزم أوبيرون أن يصلح ما أفسد من علاقة العاشقين فأنفذ العفريت « بك » إلى هيلانة ليعود بها إلى الموضع الذى كان ديمتريوس نائماً عنـده . وراح هو بنفسه يقطر من عصير الغرام على جفنى ديمتريوس حتى يرى هيلانة أول من يرى عنـد يقظته فيحبها . .

وبذلك يسعد العشاق الأربعة ، فيهنأ ليساندر بهرميا ، وينعم ديمتريوس بهيلانة . .

ولـكن هـذه النهاية السعيدة لم يكن قد حان بعد أوانها ، إذ كان ثم خطأ آخر موشكا أن يقع .

ولعلك تذكر أن ليساندر كان قد وقع فجأة فى حب هيلانة بفعل السحر الذى مسه . وطفق يعلن حبه لها وهى لا تصدقه ظناً منها أنه يدعى الحب ليسخر منها ويهزأ بها .

واتفق أن وصلا إلى الموضع الذى كان ديمتريوس وهرميا نائمين عنده ، فما رأى ديمتريوس أول ما فتح عينيه غير هيلانة ، فراح هو كذلك من فعل السحر يتحدث إليها بلغة الحب ، ويخاطبها بعبارات التغزل والصبابة ، فبهتت هيلانة وشدهت ، إذ لم يكن

أحد من هذين الشابين من قبل يحبها ، فتبادر إلى خاطرها أنهما قد اتفقا على السخرية منها والاستهزاء بها فبكت غضبى ، وغضبت باكية ، وأنشأت تحتج قائلة :

« يالى من الكيد ! يالى من الجحيم ، أراكما قد تشاركتما فى اللهـــو بى ، واحنيتما على بالعبث والزراية والضحك منى والسخرية . .

« ولو كنتما مهذبين وتعرفان الأدب ، لما نلتما منى بهذه المساءة ، وآذيتمانى كل هذا الأذى . .

« ولو كنتما رجلين باطناً ، كما أنتما شكلا ومعرضا ومظهرا ، لما عاملتما سيدة ضعيفة هكذا ، تقسمان وتحلفان أنكما لصادقان فى تشبيبكما بجمالى ، ومديحكما المفرط لمحاسنى وأفضالى ، على حين أنا الواثقة أنكما لى كارهان ، وفى قلبيكما من نحوى مبغضان » .

ولكن ما سيلى أدهى وأنكى .

فقد دخلت إذ ذاك هرميا التى كانت بالعكس محبوبة من قبل منهما فأضحى كل منهما لا يحبها .

فأنشأت تسأل ليساندر علام هجرها ولأى داع تركها ، وتولى

عنها ؟ فأغلظ لها فى الجواب كما تولى عنها ديمتريوس ، فظنت هيلانة أنهم ثلاثتهم قد تشاركوا فى العبث بها واتفقوا على السخرية منها .

بينما راحت هرميا من ناحيتها تتهم هيلانة بأنها هى التى سلبت حبها ، وأخذت منها حبيبها ، وفيما كانت الفتاتان تشتجران وتتنازعان كان ليساندر وديمتريوس قد انتحيا جانبا لكى يحلا بحد السيف مشكلة خلافهما فى حب هيلانة كل منهما يطلبها لنفسه ويدعى الحق فى حبها دون سواه .

ولكن اوبيرون انتهى به التفكير أخيراً إلى تدبير خاتمة سعيدة فدعا إليه «بك» وأمره بأن يحول دون التقاء ليساندر وديمتريوس ويعمل على منعها من المبارزة ، وذلك بأن يحدث ضبابا كثيفا ثم ينثنى يقلد لهجة كل منهما فى حديثه مع خصمه ، ويظل يهيج صدريهما بالسخرية والشتائم ، ويستثيرهما بالمثالب والسباب ، على شرط أن يعمل على تعجيز كل منهما عن النيل من صاحبه بحسامه والتغلب عليه بسيفه ، بسبب تكاثف الضباب واشتداده .

وقال له « أوبيرون » : أفعل هذا حتى ينال منهما التعب ، ويدركهما الإعياء فيتهالكا من فرط الجهد على الثرى ليناما ، فاذا

ما استولى عليهما النعاس فاقطر عصير هذه الزهرة الأخرى على عيني ليساندر فيعود إليه حبه الصادق لهرميا بينما يبقى لديمتريوس حبه لهيلانة .

وكذلك فك العفريت « بك » السحر عن ليساندر وجعل العشاق الأربعة يهيمون فى الغابة حتى يهتدى إليهم فى النهاية ، وكل بأمر الآخر جاهل ، رقودا فى موضع واحد .

وكانت هرميا أول من استيقظ فوجدت حبيبها الذى فقدت حبه نائما على مقربة منها ، فعجبت له كيف غادرها ثم رجع هكذا إليها وساءلت خاطرها أترى حبه لها قد تلاشى حقا أم لايزال باقيا .

ولما استيقظ ليساندر ثابت إليه نفسيته الأولى واستعاد حبه القديم وانشأ هو وهرميا يتحدثان عن هذه الليلة الغريبة وماجرى فيها من وقائع غرائب واحداث عجيبة ثم إذا كل ذلك يلوح اليوم كأنه كان حلما فى الكرى أليما ومناما مزعجا .

وانتهت الليلة بالنسبة لهيلانة أيضاً نهاية سعيدة ، فقد صحت من نومها فوجدت حب ديمتريوس لها صادقا لامتكلفا ، وحقيقة لا إدعاء ، فكان ذلك تعويضا عن حبها القديم الذى طال عليه الأمد وعادت الصداقة الآن فتوثقت بين هرميا وهيلانه ، بعد أن زال

سبب ما كان بينهما من نزاع وخلاف غير أنه بقى حائل واحد دون سعادتهم ، وهو الحكم الذى أصدره ايجيوس بأن تختار هرميا بين الزواج بديمتريوس وبين الموت .

وبينما كانوا فى حيرة لا يدرون ماذا هم صانعون فى هذا إذ دخل الغابة الدوق سيسيوس والملكة وقد جاءا فى مطلع الفجر يطلبان صيداً ويلتمسان قنصا . وكان ايجيوس فى حاشيتهما ورفقتهما ، فأتوا بالمصادفة على عشاقنا الأربعة فسألهم الدوق بالطبع ما خطبهم وما الذى جاء بهم إلى هذا الموضع باكرين .

فقص عليه كيف كان قد دبر هو وهرميا الاجتماع فى الغابة والفرار من أثينا وقانونها القاسى الأليم .

فلما سمع الشيخ ايجيوس هذا الإقرار من الفتى تقدم فى الحال يطالب بتنفيذ القانون قائلا :

« أرجو توقيع حكم القانون فوق رأسه » وانثنى إلى مخاطبه قائلا : « لقد كانا يريدان فراراً ، ياديمتريوس ، ويرجوان هربا . ليتغلبا علينا ، ويحبطا اتفاقنا »

ولكن ديمتريوس فى شىء من الحماقة بادر إلى المجاهرة بأنه لم يعد يحب هيلانة .

ووجد الدوق ثيسيوس أن كل فتى لفتاته موافق متكافىء ، فحمل ايجيوس على التنازل عن طلبه وحدد للاحتفال بزواجهم السعيد اليوم ذاته الذى ستقام فيه حفلات عرسه ومجالى قرانه .

واشترك اوبيرون وهو فى زى الجان ، أو على طريقتها ، فى ذلك الفرح التام ، ومجالى السرور والابتهاج .

وكذلك انتهت نحوس ليلة فى أواسط الصيف نهاية سعيدة واختتمت أحسن ختام . . .

مأساة كوريولناس

لم تكن أرض روما فى السنين الخالية غير جزء صغير من ايطاليا . وكان يتولى حكمها فى الغالب مجلس الأعيان «السناتو» وهو مجلس مؤلف من كبار القضاة والاشراف .

غير أن جمهور الشعب أخذ رويداً يطالب بأن يكون له صوت أو نصيب فى حكم البلاد ! وراح شيئاً فشيئاً يظفر بما طلب . وعلى الأيام تمين موظفون مخصصون يسمون « التريبيون »[1] أى

---

(١) النواب فى النظام النيابى الذى اقتبس بعد ذلك من الدستور الرومانى .

« المأمورين » أو « المراقبين » للاشـتراك فى رعاية مصلحة الشعب وحمايته من ظلم العلية وجور الخاصة .

وحدث عقب تعيين هؤلاء المراقبين ، أن قامت مجاعة أو قحط شديد ، فجعل الفقراء وجموع الساغبين والمتضورين من الجوع يلومون الأغنياء على حبس ما فى المخازن عنهم من الحبوب والغلال ، وراحوا يصبون جام غضبهم خاصة على محارب مشهور يدعى كاياس مار كياس كان قد أكسب روما عدة انتصارات ، ولـكنه كان مكروها لجاهرته باحتقار الشعب والازدراء به .

فتجمهر فى الشوارع فريق من المواطنين كانوا أشد أفراد الشعب تمردا ، وأنزعهم إلى الفتنة ، وراحوا يهتفون بموت كاياس مار كياس وهموا بأن يتجهوا بمظاهرتهم العدائية نحو داره لولا أن تقدم إليه أحد أشياخهم وكبير من أعيانهم ، يدعى (منينياس اجريبا) فحاول بالحسنى صرفهم عن وجهتهم وتهدئة ثائرتهم .

وكان هذا الشيخ صديقا لـكاياس ، كما كان معروفا بحبه للشعب ومحبوبا من الجميع ، فرضى المتجمهرون ، والمشاغبون الاسماع لمل كلماته ، واستعدوا للاصغاء إلى خطابه .

وذهب أجريبا يقول لهم أن هذا القحط لم يكن من فعل البشر ولا الذنب فيه لمجلس الأعيان إذ هو فى الواقع شديد الرغبة فى توخى الصالح العام .

وانشأ يقص عليهم قصة تبين كيف أن كلا من مجلس الأعيان وأفراد الشعب ضرورى للاخر ، ولا قيام لأحدهما دون صاحبه .

قال :

— يحكى أن سائر أعضاء الجسم تمردت يوماً على البطن فادعت أنه لا يؤدى عملا ، بل لايشتغل ، وكل همه أن يحفظ الطعام الذى يأتى إليه فلا يشترك مع الجوارح الأخرى فى عمل الجسم وجهده بل يتركها تتولى الأمر بنفسها وتعمل بذاتها .

فكان جواب البطن على احتجاجاتها وشكاواها أن قالت : لست أنكر ، أننى أتلقى الطعام ولكنى لست أحتفظه لنفسى وإنما أرسله عن طريق الدم ليغذى سائر أعضاء البدن ويبقى على حياتها وهكذا من عملى يحيا الجسم كله ويصح ، وكل ما أحتجزه هو فضلات الطعام التى لاغناء فيها للبدن عامة .

وأردف مانينياس قائلا لأولئك المواطنين أن تمردهم على الذين

يكفلون لهم حاجياتهم أشبه بتمرد مختلف أجزاء الجسم على البطن فان الدولة كالجسم يختل نظامها ، ويفسد أمرها ، إذا نزع أفراد من بنيها إلى التمرد والعصيان .

وكانت حجة مينيناس الهادئة اللطيفة المدخل على النفوس يحتمل أن تهدىء من ثائرة الشعب ، ولو لم يظهر فى تلك اللحظة كاياس ماركياس نفسه فيعمد إلى شتم الساخطين الغاضبين ومناداتهم « بالكلاب » ، والأشقياء وغيرهما من مرذول الصفات ، وإلى الانحاء باللائمة عليهم ووصفهم بالتقلب والميل مع الهوى ، وأنهم لا يعول عليهم ، ولا يوثق بهم ، ولا يركن إليهم .

ولما سمع من منينياس أنهم يطالبون باعطائهم غلالا بالأسعار التى يرتضونها . نهرهم وعنفهم على دعواهم الجريئة وجهلهم وراح يهددهم بسيفه ثم طردهم من حضرته ، فقد كان ينظر إلى الشعب نظرته إلى رعاع خطرين يجب قمعهم بلا رحمة ولا هوادة وتحدث إلى منينياس عن شكه فى الجدوى من تعيين « المراقبين » واحتمال ماينجم عنه من متاعب وقلاقل وفتن .

وفى ذلك الوقت كانت المجاعة والتطاحن الحزبى فى روما قد

شجعها بعض خصومها ومنافسيها القدماء ، ونعنى بهم جيرانها « الفولش » على إعداد غارة عليها وكان كاياس مار كياس. من قبل قد تلاقى وزعيمهم تولاس أوفيدياس فهزمه فى المعركة ، كان يعرفه جندياً شجاعا بارعا فى أساليب القتال .

فتولى كاياس مار كياس . بناء على قرار مجلس الأعيان إمرة الجيش باشراف القنصلين — أى المستشارين — اللذين كان معهوداً إليهما بقيادته إلى الحرب ،وكان المراقبان او المشرفان اللذان حضرا المناقشات فى مجلس الاعيان قد وجدا على كاياس مار كياس لخشونته وطعنه فى حق الشعب وقحته وجرأته وعجب الشعب من رجل متكبر مغرور مثله يعارض بأن يكون مرؤوساً للقنصليين وحسبوا ذلك خدعة ومكراً وجعلوا يقولون فيما بينهم إذا أنتصرت روما أدعى الفضل لنفسه وإن هى أنهزمت نسب اللائمة إلى هذين القائدين

وسمع زعماء الفولش من الجواسيس بنبأ استعدادات الرومان للحرب فقرروا أن يتوجه أوفيدياس من كوريولى عاصمة بلادهم بجيشه لملاقاة الرومان تاركا من ورائه جماعة صغيرة للدفاع عن المدينة .

ولما خرج الجنود الرومان من روما خلفوا وراءهم النساء من

أزواج وأمهات وأخوات ينتظرن بقلق ولهفة نتيجة القتال. ومآل المركة وكانت زوج كاياس قد امتلأ فؤادها رعبا وقلقاً ولكن أمه « فولامنيا » مثل كثيرات من نساء روما فى السنين الخاليات كانت أحفل بالشرف منها بالسلامة والأمان من الموت وعدت إظهار زوجته للخوف ضعفاً وخوراً .

وفيما كانتا تتحادثان إذ أقبل صديق بانباء تفيد بأن كاياس ماركياس قد راح يقدم المعونة والمدد للغارة على كربولى وأن الجيش الرومانى الرئيسى يحاول الاشتباك مع العدو فى الميدان .

وكانت هذه الأنباء صحيحة فقد بدأ كاياس وجنوده بالزحف على المدينة ولكنه أخفق وفشل وارتدمهزوماًمدحوراً إلى خنادقه غير أنه عاد فى غضب فاستجمع جنوده وجعل يندد بهم ويعيرهم ويدعوهم الجبناء الرعاديد حتى استطاع بهم ردالفولش وإرجاعهم القهقرى إلى المدينة وعـــدا هو وراءهم بنفسه مطارداً ولكنه ترك بلا مدد فتكاثر الفولش عليه متألبين وأكرهوه على الخروج من أبواب المدينة مثخناً بالجراح .

غير أن إقدامه وشجاعته وجرأته مالبثت أن شجعت أتباعه وألهمتهم البأس والاستبسال فكروا على العدو ودخلوا المدينة كرة

أخرى وعلى الأيام أستولوا عليها .

فأقام كاياس فريقاً من جنوده على المدينة ليكفلوا بقاءها فى قبضتهم وبادر هو بتعبئة رجاله ، على الرغم من جزوحه ، لامداد الجيش الرئيسى وكان هذا مشتبكا مع العدو فى معركة على مسيرة ميل أو نحوه وكان العدو قدحمل عليهوشدد الوطأةفوصل ماركاش فى الوقت المناسب وزحف بقوة على الجناح الذى يقوده أوفيدياس فتحول بذلك سير القتال إلى صف الرومان ودارت الدائرة على أعدائهم ، وبرز ماركاس لأوفيدياس وتلاقيا وجها لوجه ولكن أنصار الأخير أنقذوه من قرنه ، ونجوه من مجالده وأحرز الرومان فى النهاية نصراً كاملا ، ومنح القائد الرومانى لكاياس لقب « كوريوليناس » اعترافا بفضلهعلىحسن بلائهفىالقتال والاستيلاء على مدينة « كوريولى » .

ورد الرومان فى شروط الصلح المدينة إلى الفولش . ولكن أوفيدياس بعد تكرار الهزائم التى أصابته من منافسه فى الميدان اعتزم أن يجعل الغلبة له على كاياس، أو كوريولينياس ، كما سندعوه بعد الآن .

فاذا لم تتيسر الغلبة له بالوسائل النزيهة. فليلجأ إذن إلى الوسائل المعيبة . ولبث يترقب السوانح ، وينتظر الظروف ، وسنعلم اللحظة كيف نجح فى النهاية .

ولما وصلت أخبار كوريوليناس وعظائم فعاله والمجد المعلى الذى أحرزه إلى أسماع « ممثلى » الشعب فى روما — التريبيون — لم يكن إبتهاجهم بانتصار روما ليعـــدل مبلغ استيائهم من نجاح كوريوليناس وقد ظهر شعورهم على حقيقته فى حديث دار بينهم وبين الشيخ الطيب الكريم منينياس فقد أبدوا له مخاوفهم من أن المجد الجديد الذى أحرزه كوريوليناس سوف يطغيه على الشعب أكثر من قبل ويرده أعنف كبرياء وأشد صلفاً . فوبخهم منينياس على صغار نفوسهم وخلائهم من الوطنية .

ولما شاهدوا كوريوليناس قد عاد عودة الظافر المنتصر. ورأوا أصحابه يقبلون عليه ممطريه سيلا من التهنئات لم يجسروا على إظهار كراهيتهم له . وإعلان بغضائهم ، ولكنهم فيما بينهم كانوا يخشون من أن يقلد كوريوليناس أسمى منصب فى الدولة فيعمل بسلطانه على تحيف سلطانهم والتقليل من نفوذهم ولكن لعلهم كانوا يعللون

النفوس بأن صلفه وغطرسته واختياله على الناس سوف يهدم ما بقى وتنقلب عليه أسوأ منقلب . فائتمروا بينهم على إثارة غضبه ونهييج حفيظته ليزدرى الشعب علانية فتثور الغوغاء عليه .

واجتمع مجلس الأعيان عقب ذلك بقليل لإجراء الانتخاب السنوى للقناصل . وكانت مدة قيام القنصل بعمله فى روما سنة واحدة . فاقترح أحد القناصل الذين إنتهت مدتهم . وهو القائد كومينياس أن يخلفه كوريوليناس على مكانه وجعل يعدد للمجلس أعمال الشجاعة والأقدام التى أتاها كوريوليناس وقيادته الملهمة وإباءه الأراء من أسلاب النصر وغنائمه فوافق مجلس الأعيان فى فى حماسة على انتخابه قنصلا .

وكان قد بقى لاتمام انتخابه باحتفال تقضى به المراسيم إذ جرت العادة فى روما بأن يتقدم القنصل الجديد إلى الشعب فى الساحة العامة — السوق — فيلقى على الشعب خطابا يؤيد به استحقاقه لتقلد أسمى المناصب فى الدوله ويطلب إلى الشعب ثقته وتأييده .

ولكن كوريوليناس أراد إلغاء هذا الاحتفال قائلا أنه لم يكن بالخطيب المناسب . والمتحدث المحبوب من الشعب ، وحين سلم

على كره منه بمواجهة الشعب وتوكيد استحقاقه لمنصب القنصلية ووقف فى الملأ خطيباً ، انثنى يسخر من سائليه . ولم يحاول التلطف فى الجواب لمستفسريه . ومع ذلك لم يتردد الشعب فى المناداة به قنصلا واعتمد التريبيون حينئذ قرارهم ولكنهم فيما بعد حين سمعوا مواطنا بعد آخر يشكون من ازدراء كوريوليناس وسخريته غيروا رأيهم وراحوا يقولون للناس : « لقد علمتم ما بكوريوليناس أبدا من كره لكم واحتقار لشأنكم ، أما وقد أصبح اليوم قنصلا . فانه غداً أقدر على ايذائكم ، وسوف يسلبكم جميع حرياتكم ، غير أنه لم يفت الوقت بعد لكى تستردوا تأييدكم وتسحبوا اقتراحكم لمصلحته فقولوا إذا شئتم انكم نزولا على رأينا نحن ممثليكم قد أعطيتم أصواتكم فى تأييد انتخابه وأن اللائمة فى تصويتكم هذا لمصلحته علينا نحن وليست اللائمة فيه عليكم .

* * *

ومازال « التريبيون » بالشعب يحرضونه على هذا النحو ومثله ويحرشونه بكوريوليناس ويدفعونه إلى تغيير قرارهم بشأن انتخابه حتى تأثر الشعب وانصاع لهم . بينما ذهبوا هم يحاولون اتقاء اللائمة

على تحوله وتقلبه .

وكان كوريولينياس يومئذ عقب قبوله القنصلية قد انثنى يضطلع بواجبات منصبه الجديد .

وما لبثت الأنباء أن جاءت تفيد بأن الفولش الذين لم يمض على هزيمتهم غير قليل يتأهبون لشن الغارة على الرومان من جديد .

فلم يكن ثم شك فى أن كوريولينياس وقد أصبح قنصلا هو أنسب قائد لملاقاة الغاراة الجديدة .

ولكن بينما كان يعد تصميماته ويرسم خططه . ويستشير الأعيان الآخرين فى مجلس مداولته . إذ فاجأهم التريبيون بنبأ سحب الشعب أصواته ومعارضتهم فى انتخابه .

فلم ير كوريوس فى هذا التحول الفجائى غير برهان آخر على حماقة العامة وفساد رأيهم . ولم يحاول إخفاء احتقاره لهم ولممثليهم فأجابه هؤلاء مذكرين إياه بسابق زراياته للشعب وأهاناته وماضى استخفافه بمعايشهم فى أيام القحط ومصالحهم . .

وحاول منينياس عبثاً أن يحسم النزاع ويهدىء من ثائرة المتنازعين . فقد تملكت الفريقين فى تلك الساعة سورة الغضب .

واحتدم الخلاف . حتى لقد التفت أحد ممثلي الشعب إلى كوريوليناس فقال له فى غضب :

« أنك لتتكلم عن الشعب كأنما أنت رب قدير تملك العقاب وفى يدك القصاص لا كبشر مثلهم فى العجز سواء » .

وأردف قائلا أنه سيبلغ الشعب عبارات الأهانة والاحتقار التى تفوه بها فى حقهم .

غير أن كوريوليناس لم يكن ليرى فى السلطات الجديدة التى أعطيت إلى الشعب غير الخطر على الدولة .

وكان الرأى عنده أنه يتحتم على مجلس الأعيان أن يسحب تلك السلطات وإلا عرض مصير الدولة للخراب بترك مقاليد الأمور لجهالة الشعب وحماقته .

واستفحل الأمر بانفجار غضبه وشدة اعتراضه على الحقوق التى اكتسبها الشعب من عهد قريب إذ بادر « التريبيون » إلى إتهامه بالخيانة وإلى المطالبة بالقبض حالا عليه .

ولم يجد نفعا كل مافعله منينياس والعقلاء من الشيوخ والحكماء

من الأعيان فى سبيل تهدئة العاصفة وذهبت مساعيهم أدراج الرياح

وأحاط جمع من الغوغاء وهم غضاب بكوريوليناس ، بناء على دعوة من التريبيون وطلبهم ، بينما راح هؤلاء يطالبون بموته .

ولكن أنصاره وأصحابه بادروا إلى نجدته وصرفوا الغوغاء عنه

وعليه مازال منينياس بكوريوليناس حتى أقنعه بالعودة إلى بيته . بينما انثنى هو يحاول تسكين ثائرة الشعب .

ولما كان بطبيعته محباً للسلام لم يستطع أن يدرك سر غضب كوريوليناس ودوافع حنقه وهياج نفسه ، فجعل يخاطب الغوغاء الغضاب مهدئا ثائرتهم بالرفق واللين فى الخطاب ، مذكرا أياهم أن كوريوليناس على الرغم من أغلاطه قد استحق تقدير الوطن : واستأهل الاحسان من بلاده . فإذا أبى التريبيون إلا أتخاذ الاجراءات ضده، فليترفقوا وليستأنوا ،وليأخذوا بالعدل والإحسان ولا يتهوروا ويتعجلوا :

وقال لهم أن السبيل القويم ، والطريقة الحكيمه، هى استدعاء كوريوليناس وإمهاله حتى يجيب على التهم الموجهة إلية ومراضاتهم ومصالحتهم فوافق التريبيون والشعب على الأخذ بهذه النصيحة ؛

ودهش كوريوليناس حين وصل إلى بيته أن وجد أمه « فولامنيا » تستنكر تصرفه وتستهجن سلوكه وعندها أنه قد أظهر شعوره الحقيق للشعب قبل الحين المناسب وكان أولى به أن يتريث حتى يتوطد مركزه ، ويستقر سلطانه ويتعزز نفوذه .

وكان كوريوليناس يحترم أمه احتراما شديداً ، فقد كانت مثله ، أرستقراطية متشددة فى أعماق قلبها ، تحتقر الشعب ، وتزدرى الجماهير .

ولما رأى أنها هى أيضا قد خطأته ونسبت اللوم إليه ، بدأ يستمع لنصيحتها .

وجاء على أثره منينياس من مجلس الأعيان فى جمع من الأصدقاء فألحوا هم أيضا فى مسالمة الشعب ومحاسنة الكافة لينقذ روما من الفتنة وأخطارها والثورة ونتائجها .

وأنهم لكذلك إذ قدم ، كومينياس ، بنبأ تجمهر وصخب انتشرا فى المدينة .

وكان لابد من البدار إلى عمل ما لعلاج الموقف فما زالت فولامينيا ومينينياس بكوريوليناس حتى وافق مكرها وضد طباعه ، على التقدم

إلى الشعب ومحاولة ترضيتهم واكتساب مودتهم، حتى وإن اضطره ذلك إلى تمليقهم وملاطفتهم .

ولكن تبين من سير الحوادث أن تحوله من المخاشنة إلى المحاسنة جاء بعد فوات الأوان ، إذ كان التريبيون الحسدة له الواجدون عليه قد إنهمكوا فى تحريض الشعب عليه وتأجيج نار البغضاء له ، وأشاروا عليهم باتهام كوريوليناس بالعمل على إقامة حكم الطغيان ، فإذا استطاع تبرئة نفسه من هذه التهمة فليتهموه بالحقد على الشعب وكراهيته ، وإن هو خرج من هذه أيضا بريئا فليتهموه بأنه لم يقسم الأسلاب والغنائم التى اجتمعت من الغلبة على الفولش ، ولم يكتفوا بتلقين الشعب هذه التهم لتوجيهها إليه بل أجمعوا أمرهم على التحرش بكوريوليناس وإثارة خاطره بالكلام والألسنة الحداد ، حتى لا يتمالك نفسه ويغلظ للشعب فى الجواب .

وكذلك عندما تقدم كوريوليناس فى رفقة منينياس أمام الشعب وأنشأ يتحدث إليهم فى رفق كما وعد ، وجد الأمر شاقا عليه فحاول منيناس كدأبه استمالة الشعب بتذكيرهم بحسن بلائه

فى الحرب راجيا اليهم أن يصفحوا عن خشونة مسلكه ويتغاضوا عن جفوته ، فذلك شأن الجندى وبعض طبيعته .

غير أن أحد الممثلين للشعب — التريبيون — أراد أن يحول دون الوئام ، ويمنع استتباب السلم ، تقدم إلى الشعب وابتدر كوريوليناس باتهامه بخيانة الشعب والغدر به .

فكان له ما أراد ، إذ لم تن هذه التهمة أن أوجمت كوريوليناس ولذعته وبدلا من أن يرد عليها برفق وهدوء ، راح ينكرها بقوة وينفيها عن نفسه بشدة وعنف ، وانفجر غضبه فحمل على الرجل الذى اتهمه بها حملة شعواء .

فما كان من هذا «النائب» إلا أن أصدر باسم الشعب الحكم على كوريوليناس بالنفى مدى الحياة « المؤبد » وما أن سمع الغوغاء ذلك حتى تصايحوا فى حماسة بالغة معلنين موافقتهم هاتفين بحياة ممثليهم مصفقين لهم مهللين .

وكان قانون البلاد يقضى على كوريوليناس طبقا لهذا القرار بالرحيل إلى المنفى .

وعجب التريبيون وتولتهم الدهشة بلا شك حين رأوا كوريوليناس

قد تقبل هذا القرار لأن احترامه للقانون على هذه الصورة كان مشرفا له ، على الرغم من إغلاطه وذنوبه ، ولعله ارتضى ذلك لعلمه بأن شعب روما لن يلبث أن يستشعر الأسف على تعجله فى قراره .

وودع كوريوليناس أهله وصحبه وداعا جافيا ولكن أليماً وأبى على أحد أن يرافقه إلى منفاه . وخرج من المدينة وحيداً فريداً .

والآن وقد تخلص التريبيون من عدوهم وعاد السلام يخيم على المدينة حتى حين ، وبدا فى أول الأمر أن الحال قد هدأت والأمور تجرى فى أعنتها وتفاخر التريبيون بفوزهم على عدوهم وعدوا ذلك من محامدهم .

غير أن انتصارهم لم يطل عليه الأمد ، إذ حين علم الفولش بنبأ الاضطرابات التى جرت فى روما ونفى كوريوليناس أعدى أعدائهم . وألد خصومهم . بل الخصم الذى يرهبون جانبه. تشجعوا وسارعوا إلى التأهب لشن الغارة على روما ، وأدهى من ذلك أن كويورليناس راح من شدة موجدته على بنى قومه لجحودهم ونكران حقيقته لهم . وعوارفه فيهم . يقصد « أفتينا » إحدى مدائن

الفولش وقد انتوى أن يعرض على أوفيدياس قائدهم معونته على بلاده .

وكان أوفيدياس مقيما مأدبة دعا إليها النواب والإشراف من قومه ، حين دخل كوريولينياس مدينة أثينا متنكراً فى زى سائل يتكفف الناس ، وجاء إلى قصر أوفيدياس،فظنه الخدم معترا(١) هائما على وجهه فابوا أول الأمر أن يأذنوا له بالدخول ولكنه شق طريقه حتى مثل بين يدى أوفيدياس ، فاغتبط هذا طبعا بما كان من دورة الحوادث ، وتحول الظروف .

ورحب بكوريولينياس من قلبه وتولته الحماسة فعرض عليه قيادة نصف جيشه والإشراف على المعركة القادمة .

وسمع التريبيون فى روما بالنبأ فلم يصدقوه بادىء الأمر وصبوا جام غضبهم على الرسول المسكين الذى جاء بالخبر الأليم .

ولكن رسلا آخرين قد أتوا فأكدوه ، فلم يتوان منينياس وكومينياس فى تذكير النواب المروعين مما سمعوا بأن تلك هى

---

(١) المعتر هو الذى يتعرض للسؤال ولا يسأل .

النتائج الوخيمة التى أدى إليها نفى كوريولينياس من البلاد فخسرت روما بذلك شجاعته وبراعته وربحهما العدو وأضحت روما تحت رحمتهم . .

فندم أهل روما عندئذ على ما فعلوا ندامة مرة وانعقد مجلس الأعيان بسبب هذه الطوارىء وقرر السعى فى إقناع كوريولينياس بالرجوع إلى وطنه ولم يتردد الشعب لحظة فى إلغاء قراره القاضى بنفيه . بل لقد كان ذلك القرار قد ذهب من خاطرهم شيئاً فشيئا .

وكان كومينياس قد شخص فعلا إلى كوريولينياس واجتهد فى استمالته إلى الرجوع ولكن كوريولينياس أصم أذنيه عن سماع حججه ومبرراته .

ولم يشأ التريبيون من الحياء أن يذهبوا إليه فيسألوه رجوعا وكانت تصرفاتهم المتعجلة ومسلكهم البعيد من الحكمة هى التى أدت إلى نفيه .

فقرر مجلس الأعيان القيام بمسعى آخر . وأنثنوا إلى الشيخ الطيب الكريم منينياس يرجون إليه الذهاب بنفسه ومناشدة كوريولينياس المآب إلى روما .

ولما قدم منينياس على كوريولنياس ، وجده مع أوفيدباس ، فانشأ يتوسل إليه ، والدمع فى عينيه أن يعفو ويصفح عن بنى قومه الصفح الجميل ، ولكن كوريوليناس لم يحفل بتوسلاته ، ولم يعبأ بتضرعاته بل قطع عليه القول ورده من حيث أتى .

وكانت المحاولة الأخيرة ، والملتجأ الباقى ، خروج أمه وزوجته وولده الصغير إليه .

فلما رآهم شق عليه فعلا أن يقسو حيالهم ويحيل قلبه من جديد صلباً إزاءهم ، وخشى أن يختلى بهم عند لقائه لهم لئلا يستسلم لهم ويذعن . فعمدت أمه فولامنيا إلى التأثير فيه من ناحية احساسه كجندى بقيمة الشرف ، مهيبة به : أفتحسب مما يجمل بشرف الرجل السامى النفس أن يظل يذكر الاغلاط ولا ينسى الآثام ولا يغفر الذنوب . ؟ !

وأنشأت تحذره وتنبهه إلى أنه إذا أصر على جفوته ، وأبى إلا البقاء على عداو[ته] ...ـرت تلعنه الأجيال الخالفة ، وتنقم عليه الذرارى القادمة ، لأنه بسبب ظلم وقع عليه ، وذنب ارتكب

فى حقه ، أنتقم من وطنه ، وثأر لنفسه من بلاده .

وأنه إذا أبى العودة فليحاول على الأقل أن يبذل كل ما فى وسعه للتوفيق بين وطنه وبين أعدائه السابقين والتمكين للصلح بينهما السلام .

فلم يقو كوريوليناس على مقاومة هذه التوسلات التى اشتركت فيها أمه وزوجه وولده فأنشأ يقول :

« لك الله ياأم . . . فلقد كسبت لروما اليوم نصراً عزيزاً ، وفوزاً مبيناً » .

ولكنه تذكر فجأة حليفه الجديد أوفيدياس وكان واقفاً عن كثب منه ، فأدرك أنه إذا هو أذعن لرجاء أمه . فقد تخلى عن حليفه ، وعادى أصدقاءه الجدد ، فاستدار إليه قائلا :

— أوفيدياس ! لئن كنت عن الحروب حقيقة عاجزاً ، فما أنا عن تنظيم السلم الصالح بعاجز . . ألا خبرنى ياأوفيدياس الكريم لوقد كنت فى مكانى ، أفتحسبك مستمعاً لأمك ياأوفيدياس أقل مما سمعت أو مستجيباً لمطلبها أقل مما أستجبت ؟ !

وحين هم كوريوليناس بالحاق بزعمـــاء الفولش وقوادهم . معتزما الاتفاق معهم على الصلح من جديد، أنثنى إلى أهله يخاطبهم فى وقفته للوداع قائلا :

— أيتها السيدتان ، إنكما لمعبد يشاد لكما تستحقان. وبالتكريم جديرتان .وأن جميع أسياف إيطاليا وأسلحتها متحدة مجتمعة ، ما كانت لتقيم هذا الصلح ، ولا كان فى مقدورها إحداث هذا السلام .

ولـكن أوفيدياس كان يعلم أن الصلح لم يقم بعد وأدرك أن فرار كوريوليناس قد وضع أخيراً أعدوه القديم فى قبضة يده وملكه من خصمه فاعتزم أن يأخذ منه ثأره كاملا غير منقوص .

وبينما كانت هذه الحوادث تجرى فى معسكر الفولش كان القلق سائداً روما والخوف مستولياً على شعورها .

فقـــد أنقلب فرح التريبيون بنفى كوريوليناس ترحا . وإستحال تهللهم له قلقاً وحزناً ، وأرتد فخرهم به خيفة فى قلوبهم على حياتهم . إذ كان الشعب الرومانى قد أدرك أنهم أصل البلاء

وسبب النكبة فانقلب عليهم . وراح ينادى بموتهم .

غير أن الحظ تغير فجأة فعاد فى صفهم . . فقد جاءت الأنباء بان كوريوليناس ، أذعانا لرجاء أمه ، أعتزم أن يرد الجيش المغير عن روما ويصلح بين الجمعين . فكانت مفاجأة للرومان : وذهب عن أهلها الروع . وهدأ البال ، وخرج الأعيان فى جموع زاخرة، لاستقبال السيدتين عند عودتهما والأحتفال بقدومهما ومرافقتهما إلى بيتهما وسط هتافات بالغة وترحيب كريم .

ولبثت والدة كوريوليناس وزوجه يرتقبان فى جذل مآبه بسلام محمود وصلح يحقن الدماء . .

ولكن أوفيدياس كان قد دبر تدبيراً آخر فان رغبته فى الثأر من منافسه القديم الذى طالما دحره فى الحرب وكسره، قد أمكن الآن أن تتحقق . وشهوته إلى الانتقام قد حان إشباعها ، فضلا عن أنه كان ينفس عليه الشهرة التى أكتسبها بصفته قائدا لجيش الفولش .

ولذلك دعا سراً اليه بعض أتباعه والمتشيعين له وقص عليهم

كيف قرر كوريولينا س الصلح على غير انتظار ودون استشارة أحد الزعماء فحرم بذلك الفولش من فرصة أتيحت لهم للظفر بنصر باهر . بل انه بذلك خان عهد حلفائه المحدثين .

ولذلك حين جاء كوريوليناس إلى النبلاء وهم مجتمعون ليبلغهم نبأ النهاية السعيدة لنزاعهم مع روما وجد وجوههم عابسة وصفحات معارفهم متجهمة له ، وما كاد أوفيدياس يلمح لهم تلميحاً ، حتى رفضوا وأبوا حتى قراءة شروط الصلح المقترح واتهموا كوريوليناس جهرة بالخيانة .

وإزاء هذا الاتهام لم يأخذ كوريوليناس بالحكمة والحزم والسكون فى الجواب عليه ، ولكنه غضب أشد الغضب ، وتملكه الحنق ، وأغلظ لهم فى الخطاب . . .

فهاج القوم وماجوا وانتهز المتآمرون هذه الفرصة التى كانوا يترقبون سنوحها وطلبوا إلى الشعب القضاء على هذا الخائن ، واشترك العامة فى هذا الضجيج الصاخب ، ولم يشذ من النبلاء والاشراف إلا واحد منهم أجترأ على مخالفة الإجماع مطالباً بمحاكمة عادلة ، ولكن احتجاجه لم يحفل به وباشارة من أوفيدياس انقض

القوم على كوريولينياس يفتكون به حتى خر من طعناتهم صريعاً .

وكذلك مات الرجل الشجاع والمحارب الجرىء ، والجندى المغوار على اختيال فيه وزهو كاذب بسمو قومه وعلو طبقته

مات الرجل الذى لم يكن عنده من الحيل والمكر واللؤم . . وسائر الصفات المذمومة التى اتصف بها أعداؤه الذين احتالوا على موته

ولكن كبرياءه كانت هى فى الأصل التى سوأت حظه وحطمت مصيره .

روميو وجولييت

حدث فى فيرونا ، إحدى مدن ايطاليا ، خصام بين عشيرتين من أبذخ عشائرها مجداً ، وأعرقها محتداً ، عشيرة كابوليت ، وعشيرة مونتاجو ، وبلغت العداوة بينهما حداً جعل أفراد كل منهما وخدمهما إذا التقوا فى الطريق بافراد الأخرى والذين فى خدمتها يتقاتلون ، وينشب العراك بينهم ولم يكن أحد من العشيرتين يجرؤ

على دخول حى العشيرة الأخرى وهو الآمن على حياته ، المطمئن إلى نجاته .

وكان روميو ابن الأمير مونتاجو يحب ، أو يحسبه يحب ، غادة حسناء تدعى «روزالين» ولكنها لم تكن تجد له فى نفسها حبا ، فاغتم لذلك وشق عليه إعراضها ، ولبث يتحين كل فرصة للالحاح عليها بحبه ؛ واللجاجة فى هواه .

وكان الشيخ « الأمير » كابوليت قد أقام مأدبة ودعا إليها كما جرت العادة كثيرات من الحسان والملاح وعديداً من شباب فيرونا وفتياتها النبلاء ، ومن بينهن الحسناء « روزالين » ولكنه لم يدع إليها أحداً من عشيرة مونتاجو .

غير أن الحظ أوقع فى يد روميو البيان الحاوى لأسماء المدعوين والمدعوات ، إذ التقى بخادم آل كابوليت فى الطريق وهو يحمل رقاع الدعوة ، ولم يكن الخادم يعرف القراءة ، فطلب إلى روميو وهو لا يعرفه أن يتلو الأسماء عليه .

فلما رأى روميو اسم روزالين بين الأسماء اعتزم حضور المأدبة ،

وان كان أحد أفراد عشيرة مونتاجو البغيضة إلى آل كابوليت ، وعلى الرغم من إنه لم يكن مدعواً ، إذ هفت نفسه إلى لقاء روزالين ومجالستها ، كما أن ابن عمه « بنفوليو » ألح عليه فى الذهاب إلى المأدبة .

وانتويا أن يذهبا إليها معاً ، ولكن متنكرين متلثمين كإيلاف القوم فى تلك الايام حتى لا يعرفهما أحد .

وصحبهما أيضا مركتيو أحد أقرباء أمير فيرونا ، وصديق الطرفين .

ولما دخل الثلاثة الصحاب متلثمين مبالغين فى التنكر ، دار المأدبة . تلقاهم الامير كابوليت الشيخ بترحاب ولم يكن يدرى أن خلف هذه الرقعة وجهان من وجوه العشيرة الخصيمة له . فأقبل عليهم يرجو إليهم المرح ، ويأذن لهم فى اللهو ، ذاكراً صنوف السرور ، وألوان المراح والعبث ، فى أيام شبيبته ، وعهود صباه ، فراحوا يساهمون بحرية فى متع هذه الحفلة ومباهجها الطيبة .

وعند ذلك وقع لروميو أمر عجيب . فلقد كان إلى تلك الساعة

لا ينظر بعين الحب إلى حسناء غير « روزالين » .

ولكنه فى تلك الليلة وجد فى المدعوات غادة أخرى تجتذب إعجابه وتستهوى فؤاده وتفتن لبه بعذوبة جمالها ، ولطف آدابها ، ورقة شمائلها ، وأحس بدافع يدفعه إلى الاختلاء بها والتحدث إليها فذهب يسأل خادما فى البيت من تكون تلك الحسناء .

ومن سوء حظ روميو أن ابن أخ لكابوليت يدعى «تيبالت» سمع الكلام الذى دار بينه وبين الخادم وعرف من هو هذا المقنع وما حقيقته وخافية أمره .

وكان « تيبالت » حاد الخلق ، شديد العداوة لآل مونتاجو جميعا فلم يطق صبرا على قدوم أحدهم سرا على هذه الصورة متخفيا بلثام يستر وجهه ليسخر من حفلاتهم . إذ ظن أن مجىء روميو إنما كان بدافع الرغبة فى السخرية ، وقصد الاستهزاء بهم والعبث وأراد أن يخلق عذراً ، أو تواتيه سانحة ، لكى ينقض على روميو فيقتله ، ولكن الشيخ كابوليت حال بينه وبين ما أراد ، وتحدث إليه عن روميو حديثاً طيبا . وأبى أن يمسه بأذى وهو ضيف فى

بيته . فعدل تيبالت عن نيته ولبث يترقب الظروف ويفكر ملياً في الانتقام .

ولم يدر روميو أن كلامه قد سمع وحقيقته قد عرفت ، ولذلك ما كادت فرصة تلوح له حتى دنا من الحسناء التي أعجبته وأنشأ يخاطبها بكلمات رقيقة تنم عما في فؤاده ، ولفظ مونق بارع يشف عما يخامره وما لبثت كلماته ونظراته أن نفذت إلى قلبها ، فأجابته جوابا عذبا رقيقاً ليناً .

وبينما كانا يتعاطيان هذا الحديث العذب ، إذ دعيت للذهاب إلى أمها فلبث روميو حائراً يسائل خاطره من عسى أن تكون هذه الحسناء . واستدار إلى المربية التي كانت قد نادتها فعلم من جوابها على سؤاله أنه إنما كان يتحبب إلى إبنة أمير كابوليت بالذات فاضطرب لهذا النبأ فؤاده ، وانشغل باله ، ولكنه أحس أنه لن يتردد في المخاطرة بحياته ليكسب حبها ويظفر بقلبها .

ولم تكن جولييت أقل منه أضطرابا حين علمت من مربيتها أن ذلك الذي نال حبها هو ابن عدو أبيها .

ولما انتصف الليل أخذ الأضياف يستأذنون في الانصراف ،

إلا أن روميو استطاع أن ينفلت من رفيقيه وهم منصرفون . . ويقفل راجعاً إلى المبيت الذى غادره وراح يتسور[١] البستان المحيط به ، ووقف ثم شارد الفكر فى هذا الحب الجديد الذى وقع له ، وإنه لكذلك إذ ظهرت جولييت عند الشرفة المفتحة فى مخدعها القائم من فوق رأسه فلم تبصر بادىء الرأى حبيبها، ولكنها جعلت بحزن تردد إسمه وتتأسف على أنه من عشيرة مونتاجو التى تبغضها عشيرتها ويمقتها أهلها ، وسمع روميو مناجاتها وهو فى موقفه هذا وأدرك من كلماتها أنها تبادله الحب فأنشأ يجيب عليها بمثلها ، فتنازع جولييت عاملان ، عامل الرغبة فى الأمساك به وإبقائه بقربها ، وعامل الخوف على حياته إن هى احتجزته خشية أن ينكشف الأمر

وبينما كانا يتحدثان مخافتين متهامسين إذ خرق سمع جولييت صوت مربيتها تطلب إليها أن تأوى إلى مرقدها لأن الليل قد جاوز الموهن[٢] ، ولكن جولييت وجدت مع ذلك اللحظة من الوقت

---

(١) تسور اللص الحائط تسلقه
(٢) من نصف الليل وحين ادباره

لتصدقيها روميو قبل أن يهم بالانصراف أنها موسلة إليه من الغداة رسولا وممينة فى رسالتها إليه لزواجهما موعداً إذ شعرت بأنها سوف لا تتردد فى مغادرة بيت أبيها وتسليم نفسها ومصيرها لذمة روميو وعهده وأمانته .

. . .

وعلى هذا افترقا . . .

ولكن روميو لم يذهب إلى داره وإنما رأى أن يلتمس النصيحة عند مشير أمين ، وناصح صادق ، وهو الراهب لورنس الكاهن ، وكان الراهب الصالح قد استيقظ كعادته فى مطالع الفجر وخرج إلى بستانه يقطف الزهر ويلتقط الأعشاب .

ووصل روميو وهو ماض فى ذلك ، وكان الراهب يعزه اعزاز الوالد لولده ، فأدرك من نظراته . فى تلك الساعة . أنه جاء لأمر ذى بال. وشأن ذى خطر، ولكنه ظن باعثه حب روميو لروزالين

فلما نبأه روميو بما جرى فى ليلته ، وقص عليه مادار بينه وبين جولييت لم يوافق الراهب بادىء الرأى على تقلبه فى هواه . وتحوله فى حبه ، ولكنه تأثر بحديث الفتى وجده فى لهجته ، وأمل أن يكون فى زواج كهذا ومصاهرة بين العشيرتين المتباغضتين

المتحاسدتين ماربأ الصدع . ويصلح ذات البين ، ويزيل العداوة بينهما والبغضاء ، فاستسلم لرجائه واستخار لطلبته ووعده إذا هما قدما إليه أن يعقد لهما عقد القران .

ولذلك حين بعثت جولييت إلى روميو رسولا كما وعدته لتسأله أن يعين وقت لقائهما أرسل يبلغها فى جوابه بنبأ قبول الراهب لورنس أجراء مراسيم قرانهما .

وفى الموعد المضروب تلاقيا فتولى القاضى الصالح عقد قرانهما ودعا الله أن يجعل زواجهما سببا فى استتباب السلام بين العشيرتين

ورجعت جولييت عقب إنتهاء صيغة القران إلى دار أهلها وترقبت بصبر نافد مجىء روميو إليها ، إذ كان قد إتفق معها على الساعة التى يجتمع فيها بها فى البستان ليرحل بها ولكن قسوة الأقدار حالت دون ذلك كما سنرى .

* * *

ولما أوشك الظهر أن يؤذن غداة اليوم التالى ، كان صديقا روميو ، بنفوليو ومركتيو يسيران فى شوارع فيرونا وإذا بهما

يلتقيان بجماعة من آل كابوليت وعلى رأسهم تيبالت ابن أخي الشيخ عميد المشيرة ، وكان تيبالت هذا هو بذاته الذى عرف روميو ليلة المأدبة وأراد حينذاك قتله .

ولم يكن مركتيو بالذى يمت إلى هذه العشيرة أو تلك ولكنه كان صديقاً فحسب لروميو وهو من آل مونتاجو فتقدم تيبالت نحوه واتهمه بصداقته وصلته به فأجاب جوابا خشناً وقال له قولا غليظاً ، فتدخل بنفوليو بينهما ليحسم النزاع الذى أوشك أن يقوم بينهما ولكن تيبالت استل حسامه وهم بقتاله ، لولا أن مر بهم فى تلك اللحظة روميو بالذات فاستدار تيبالت نحوه وسبه فى وجهه قائلا له إنه نذل حقير .

ولم يكن روميو كما تعلم فى حال يستروح معها إلى القتال والجلاد ، وبخاصة حيال فتى هو ابن عم حبيبته جولييت ووليها فاكتفى بأن يجيبه على إهانته جواباً ليناً مترفقا ، ولكن هذا الحلم الغريب من روميو أشعل غضب مركتيو وأثار حنقه فانثنى يتحرش فى عنف بتيبالت ويستنفره إلى امتشاق الحسام ويستفزه إلى المبارزة والقتال . .

فنشبت معركة بين الفريقين وجعل روميو وبنفوليو خلالها يبذلان جهدهما فى سبيل التوسط بين الجمعين ، مكتفيين بمقارعة سيوف خصومهم وإسقاطها من أكفهم فى غير طعن ولا ضرب.

ولكن تيبالت تمكن من توجيه طعنة بسيفه إلى مركتيو جعلته يخر مجندلا ينزف الدم منه ، وانصرف تيبالت مبتعداً برفقائه فتبين روميو أن جرح مركتيو مميت فاستعان بنفوليو بالمواطنين الذين اجتمعوا على مشهد المعركة ، على احتمال الجريح النازف المحتضر إلى بيت من الموضع قريب . .

غير أن روميو حين شهد على عينه صديقه على هذه الصورة قتيلا بيد الإثم والعدوان ، فى نزاع قام بسببه ؟ لم يعد فى إمكانه تمالك نفسه ، أو كبح جماح غضبه فأسرع نحو تيبالت واستفزه إلى القتال وما لبث أن أرداه . .

ووقف لحظات على مصرع تيبالت مبهوتاً مذهولا مما فعل ، غير أن بنفوليو ألح عليه فى الفرار فتولى من المكان هارباً ، وكان بنفوليو قد أراد بإلحاحه هذا إنقاذ صديقه قبل أن يخطر بخلد أحد من الجمع المزدحم حولهما أن يلقى القبض عليه .

وكان بعض الناس حينئذ قد أبلغ النبأ إلى أمير فيرونا فجاء هذا مع عميدى العشيرتين مونتاجو وكابوليت ونسائهم وذويهم يهرعون . .

فطلب أمير فيرونا فى الحال بياناً عن الحادث وكان بنفوليو شاهد العيان الوحيد الذى كان حاضراً من بداية الحادث إلى نهايته فأنشأ يقص على مسمعه القصة بحذافيرها ، فوصف كيف أن روميو استفزه على كره منه مصرع مركتيو من يد تبالت فتحداه ودعاه إلى المبارزة . .

وطالبت السيدة زوج الشيخ كابوليت — كما هو المنتظر — بالانتقام من آل مونتاجو لقتلهم تيبالت ابن أخى زوجها بينما دافع الشيخ مونتاجو عن ابنه روميو بقوله : إنما صنع عدلا وأنصف القتيل من قاتله . .

ولكن الأمير كان يرى فى كل أمر من شأنه أن يكدر الأمن جناية ونكراً ، ففض المشكلة بأن نطق بحكم النفى على روميو إذ كره أن يدع القتل فى شوارع فيرونا يمضى بغير عقاب .

وإلى جولييت التى كانت تنتظر فى لهفة معاد روميو إليها ،

حملت مربيتها النبأ الباغت بأن روميو قد قتل ابن عمها تيبالت فلم تستطع جولييت بادىء الرأى تمالك نفسها من الغضب على روميو من فعلة كهذه بدت لها مناقضة لطبيعته ، وكان ذلك هو الحق فى أمره . .

وما غضبت إلا لأنها لم تكن تعلم كيف سعى روميو كثيراً فى إصلاح ذات البين وتجنب القتال . .

ولكنها حين علمت بأن روميو حكم عليه بالنفى تغلب حبها على غضبها وسرها أن يكون تيبالت هو الذى سقط قتيلا دون روميو وإلا لقتله ، وهو إلى نفسها حبيب .

على أن أشد ما أحزنها هو تصور هذا النفى الذى سوف يفرق بينهما . .

ولكن مربيتها التى حملت النبأ الأليم إليها ، انثنت إليها تواسيها وترفه عنها قائلة إنها تعرف أين التمس روميو مكمنا ، وإنه ربما جاء ليتودع منها على الأقل ويراها قبل وشك النوى.

ولنعد إلى روميو ، فإنه حين فر من الموضع الذى جرت فيه المبارزة التجأ إلى الكاهن لورنس فاختبأ فى صومعته وأنشأ

يسكب سمع الشيخ حزنه ، ويبثه ما يخالجه من أسى ويأس فقد كان بلا ريب يتوقع الحكم عليه بالموت . ولكن لما جاءه الراهب الكريم بنبأ استبدال الأمير الإعدام بالنفى بدا له أن النفى وما ينطوى عليه من فراق جولييت لا يزال فى مثل قسوة الحكم بالموت وشدته . فظل لحظة يندب حظه ويشكو تعسه ، ويصم أذنيه عن سماع عبارات التشجيع التى يوجهها صديقه الشيخ والنصح الذى راح يسديه إليه .

ولكنه انتبه من هذه الحالة التى تملكته على رسالة جاءته من جولييت تطلب إليه فيها الحضور لمقابلتها . .

فأفاق من غشيته ، وأدرك أن هذه على الأقل فرصة تتيح له توديعها قبل الرحيل . .

وطفق الراهب يحاول أن يشعره الاستحياء والاستنكاف من ضعفه ويأسه ويمنيه أن تنتهى محنته إلى نهاية سعيدة . . ويقول له إنه هو وجوليت لا يزالان على كل حال حبيبين يرزقان سالمين من كل سوء . . ومن يدريهما لعل الأمير قد يتأثر فيعمد إلى العفو عنه . . ولعل زواجه بجولييت لا يزال سبيلا إلى التوفيق بين العشيرتين . .

ونصح الكاهن له فى الوقت الحاضر ، بالمقام فترة من الدهر فى «مانتوا» وهى مدينة لا تبعد كثيرا عن (فيرونا) حتى يظل على اتصال بها ويتحين الفرصة لإصلاح ما ساء من أمره ، وعلاج بأسائه وعاثر حظه . .

فاستمع « روميو » إلى هذه النصيحة من الشيخ وأعد العدة لاختلاس زورة لجولييت والظفر خفية بلقائه بها قبل أن يشد الرحال إلى المنفى .

وكانت اللقاءة الثانية والاخيرة التى تمت لهما مزيجا من الفرح والاسى . استرقاها . . والليل ساكن . وبقية العشيرة فى المراقد نيام . فكان الفرح بها فى متعة اجتماعهما بضع ساعات . وكان الأسى منها أنهما على وشك فراق أليم ونوى رخية الامد . وربما الابد . .
ولما أدركهما الفجر . وبدت مطالع النهار . قال روميو لحبيبته
— « الآن قد حان الرحيل . ومع الرحيل الحياة . أو قد حان البقاء وفى البقاء الموت »

وقد أراد بذلك أن يقول أن القوم فى الدار إذا استيقظوا

وا كتشفوا أمره قتلوه وبعدأن وعدها فى كلماته الاخيرة أن سيظل يكتب إليها من « مانتوا » وانثنى يواسيها ويحاول نفى الهم عنها بالتعلل بأنهما سوف يعيشان حتى يعودا كرة أخرى . ! فيذكرا فى سرور آلامهما الحاضرة ، وأحزانهما الراهنة .

وانسل روميو يهبط من شرفة مخدعها وما لبث أن احتواه الليل فى السحر[1]

أما جولييت ، فليصنع الله لها ! لقد دبت إلى قلبها أحاسيس غريبة تنذر بسوء . فلم تستطع أن تتمالك عبراتها ، فاستفاض الدمع من عينيها .

وجاءت أمها عقب الفجر بقليل فوجدتها فى المخدع شاحبة مغرورقة العينين بالبكاء — فظنت أنها انما كانت تبكى حزنا على ابن عمها تيبالت ، وكانت أمها قد جاءت تحمل إليها أنباء تنسيها ذلك الحادث الاليم وتجد فيها مباغتة سارة لها .

---

(١) السحر هو الفجر أو تبثق النهار من الليل .

وذلك أن الشيخ كابوليت كان منذ أمد ، وهو لا يدرى شيئاً عن حب إبنته وزواجها ، يفكر فى أمر مستقبلها . وقد اختار لها شريفاً يدعى « باريس » كان يبدو له أنه الخطيب الخليق بها من كل وجه الحرى بأن يكون لها زوجا من كل ناحية . وظن أن جولييت سوف تروح الفخور الفرحة بقبوله زوجا لها .

ولما كان باريس أرغب ما يكون فى الظفر بزوج مليحة كهذه ولم يكن ثم سبب للتسويف والتأجيل ، حدد أبوها للعرس يوماً قريباً لم يبق عليه غير أيام معدودة .

هذا هو النبأ الذى جاءت أمها اليها تحمله ، ولكنه بدلا من أن ينفى عنها الهم . ويسرى عن فؤادها لم يزدها كما تعلم إلا حزنا على حزنها .

ورأت أمها أمارات الأسى بادية عليها فعجبت لها العجب كله بينما ذهبت هى تتشفع بكل ما اتسع خاطرها أن تتشفع به لكى تقف هذا الزواج المقترح عليها أو ترجىء موعده . فاحتجت بانها لا تعلم عن الزوج المفروض عليها غير قليل للغاية، وأنها لا تزال من الحداثة

بحيث لا ينبغى الآن تزويجها . وأن أمر الزواج قد جاء ولما يمض وقت طويل على مصرع ابن عمها .

وراحت تذكر هذه الأسباب ونحوها ، ولا تذكر السبب الحقيق الذى يحول دون ما أرادت العشيرة به . وهو أنها قد تزوجت وقضى الأمر الذى فيه تستفتيان !

ولكن الله للفتاة المسكينة ، فإن معاذيرها انما أثارت حنق أبويها ، وبدا لأبيها أنها بالاعتراض على مشيئته قد أبى عنادها الا أن تضع الحوائل والعقبات فى سبيل سعادتها ورغيد مصيرها .

وقد تناهى به الغضب الى حد جعله يلقى اليها كلاما قاسيا لا ينبغى أن يصدر من أب لابنته ، وأمرها فى غلظة وجفوة أن تستعد الخميس القادم للزواج بباريس فإنه اليوم الذى حدده لقرانهما .

وخرج من الحجرة بعد الانحاء عليها بالكلم الخشن والألفاظ القاسية فدارت جولييت بعينيها تلتمس الفزع الى أمها ، ولكن هذه كانت قد خرجت فى أثر زوجها ووجدت جولييت القوم جميعاً

حتى مربيتها فى حزن عليها اذ قالت المربية لها أنه مادامت لا تستطيع القران بروميو فمن الحماقة أن تأبى خطيباً حراً خير منه مقاما وأحسن مرداً .

فانتوت جولييت من فرط ما ألم بها أن تلتمس المشورة عند الراهب الطيب القلب ، الحدب . الحنون . فنبأت أبويها بأنها ذاهبة اليه لتدلى باعترافها وتلتمس منه البركة .

وكان الراهب قد علم من قبل بهذا الزواج ، ونبيء بخبره اذ زاره الكونت باريس ليتفق معه على المعدات الواجبة لعقد القران

ولم يكن قد أنصرف حين وصلت جولييت فالتزم من باب الأدب أن ينسحب حين تدلى جولييت الى القسيس باعترافها ولذلك استأذن فى الذهاب وهو يقول : « سآتى مبكراً صباح يوم الخميس فى طلبك » .

ولما خلت جولييت بالكاهن ذهبت تلتمس بحرارة نصيحة ومعونة مؤكدة له أن لا شيء ثم يراد منها أن تواجهه الا واجهته حتى ولو كان الموت انتحاراً بيديها فإن ذلك خير لها وأهون عليها من التخلى عن روميو للزواج بالكونت .

وكان الكاهن يعزها اعزازه لروميو فاقترح عليها أخيرا أن تتناول علاجا يشد نفسها ويشجع ارادتها .

قال :

— « اذهبي الى بيتك وأظهرى الفرح ، وأعلنى الرضا عن اتخاذ باريس زوجا ، وغداً الأربعاء فإذا أمسى منه المساء ، فاجتهدى أن تنامى وحدك فى مخدعك . غير مصطحبة مر بيتك ، وخذى هذه القارورة معك فإذا أويت الى فراشك فاشربى السائل المقطر الذى احتواها ، وأجرعى الدواء الذى فيها » .

ودس الكاهن قارورة فى يدها قائلا إنها تحوى شرابا اذا تجرعته لبثت اثنتين وأربعين ساعة رهن غشية لاتعى فيها شيئاً ، ويبرد منها البدن ، وخيل لمن يراها أنها قد فارقت الحياة .

وكذلك حين يأتى الخطيب الذى سيبنى بها فى صباح اليوم المضروب للزواج موعداً ، فلا يخامره شك فى أنها قد ماتت .

وسوف تحمل بعد ذلك ،على عادةالبلاد ووفق طقوسها، وهى غير مغطاة فوق نعش ، أو تابوت ، لتدفن فى مقبرة العشيرة، فإذا كانت تملك من الشجاعة والجلد ما تقوى به على احتمال ذلك كله

فسوف تثوب الى رشدها بعد الاثنتين والأربعين ساعة . وحينئذ يخيل اليها أنها كانت فى حلم وأستيقظت منه .

واستتلى الراهب يقول :

— وخلال ذلك أكون قد بعثت برسالة الى روميو حتى يكون حاضراً ساعة تفيقين ليحملك معه الى مانتوا .

فرحبت جولييت بالخطة وتقبلت الفكرة ، ورجعت أدراجها الى البيت وقد استعدت لنفيذ ما أشار الراهب عليها به ، فوجدت أبويها فى شغل شاغل باعداد معدات زواجها .

وحين علم أبوهامنها بأنها على استعداد لتنفيذ رغباته ، كان سروره بالغاً من نتائج زيارتها للكاهن .

قالت :

— أستميحك الصفح والمغفرة يا أبت فبذلك أمرنى الراهب الطاهر وبه نصحنى ، ومنذ الساعة لن أعصى لك أمراً .

وجعلت جوليت تتظاهر كثيراً بالاهتمام باختيار ثياب عرسها وحليهاوزيناتها ، ولكنها رجت الى مربيتها أن تدعها وحدها تلك الليلة وتذهب تساعد أمها على استكمال المعدات .

ولما حانت اللحظة الرهيبة . كان تناولها الجرعة المشئومة يقتضيها استجماع كل مالديها من شجاعة ، ويستوجب منها كل مافى نفسها من أقدام ، أفلا يجوز أن يكون سما هذا السائل الذى دفع به الراهب اليها ، بل ماذا تكون الحال اذا هى أستيقظت قبل الموعد المحدود بفترة . فوجدت نفسها فى حلكة الظلام . وفى السرداب المغلق ، وسط بقايا الموتى وهيا كلهم العظمية ؟

ولقد تمثل ذلك لخاطرها فملأ نفسها رعبا .

ولكنها لم تلبث أن تذكرت حبها وحنينها إلى روميو فطرحت جانباً مخاوفها وشربت السائل المعلوم ، وماهى إلا لحظة يسيرة حتى ولتها الغاشية فلم تعد تعى شيئا .

وفى هذا الوقت ذاته كان أبواها وقد سرى عنهما أن وجدا جولييت قد غيرت رأيها . كما كان خدم البيت جميعاً منشغلين إلى ساعة متأخرة من الليل وفى بكرة الصبح بتنظيم البيت وتنسيقه استعداداً لحفلات الغداة .

وبكر أبوها فى النهوض من فراشه وما أن سمع مواقع أقدام آل « العريس » وجماعته وهم يقتربون من البيت حتى أمر المربية باستدعاء العروس .

وقال : « اذهبي فأيقظي جولييت وبالغي في زينتها ، فأنى ذاهب للتحدث مع باريس حتى تستوفى تطريتها هيا إسرعى ، إسرعى . فقد جاء العريس وبجوليت فارجعى . . أسرعى . قلت لك ، أسرعى ! ! »

ولكن حين دخلت المربية على جولييت فى مخدعها، لم تكد تصدق عينيها ، وظنت بادىء الرأى أن الفتاة وسنى فحاولت إيقاظها . ولكن جوليت لم تتحرك فى مرقدها بل لبثت جامدة شاحبة الخدين متخشبة الأطراف باديتها .

ومن فجأة الفزع التى إنتابتها انثنت تنادى أبويها وما لبث الجميع أن اعتقدوا أن جولييت قد ماتت فساد الاضطراب أرجاء البيت وشاع الأسى وانتشر الفزع ووقف الكونت باريس جامداً لا يعير من الذهلة حراكا وقد حرم من عروسه الحسناء ، وتملك الذهول والحزن وخيبة الأمل ، الأبوين ، وقد فسدت خططهما التى عنيا باعدادها ، لإسعاد إبنتهما الوحيدة وقست المقادير عليهما . إذ لم يبق أحد إلا جزع خلا الراهب لورنس فقد ظل هو دونهم الهادىء الرابط الجأش ! وراح كما ينبغى لكاهن مثله يحاول

تسكين أحزانهم وتهدئة فيض ترحهم وشدة لوعتهم، وطلب إليهم إعداد العدة لتشييع الجنازة .

وهكذا إنقلب اليوم السعيد البداية فى أعين العشيرة وأهل الدار جميعا كئيبا بمسير جنازة على مغيبه، إذ حملوا جثمان جولييت ومضوا به ليرقدوه فى مضاجع الموت من مقبرة العشيرة .

وقد ألف الناس أن يقولوا أن أخبار السوء أسرع مسيراً من الأخبار الحسنة . فما لبث خبر وفاة جولييت ودفنها أن بلغ روميو فى مانتوا ولم يكن قد تلقى بعد الرسالة من الراهب لورنس ولو أنه تلقاها لعرف منها إنها لم تمت فعلا وإنما هى فى غيبوبة ترتقب مقدمه .

وكان روميو قبل وصول الأنباء السيئة إليه فرحا ، ويشعر بانشراح على غير العادة ، إذ كان قد صحا من حلم هنىء ظنه فألا حسنا وهو أنه رأى فيما يراه النائم أن حبيبته جولييت قد وجدته جثة هامدة « فنفخت فيه من القبلات على شفتيه فارتد حياً . وصار ملكا عظيما » !

وكان روميو ممن يستخفهم الفرح ، ويتأثرون سريعاً بالهم ، فلما جاءه غلامه بنبأ وفاة جولييت ودفنها غشيه من الغم ما غشيه ، ونزل به من الخطب ماهوى به إلى يأس شديد ، وخطر له أن لابد من الذهاب فى الحال وانتودع بنظرة أخيرة إلى حبيبته جولييت وإن كانت فقد وسدت الثرى وأسكنت فى مساكن الآخرة

فأمر بسرجه فهيىء له ، وبجواده فأعد لركوبه ، وما لبث أن تملكته فكرة أخرى من فرط يأسه ، وحرفة جواه ، وهى الحصول على بعض السموم من صيدلى فقير يقع حانوته على مقربة منه وحمل ذلك السم معه ، فاذا صح أن جولييت قد ماتت ، فلم تعد الحياة تطيب له هو كذلك . . وكان بيع السم فى تلك الأيام معاقبا عليه بالموت فى قوانين مانتوا ولكن الصيدلى الرقيق الحال لم يستطع التمنع عن بيعه إزاء الثمن الغالى الذى دفع به روميو إليه

ولما تجهز روميو للرحيل على هذه الصورة ركب رأساً إلى فيرونا فدخلها والليل قد تنصف ، وراح يأخذ الطريق إلى فناء الكنيسة حيث تقوم مقابر آل كابوليت وكان قد جاء بمصباح

معه فاستضاء به ، واستعان بقطعة من حديد ملتوية على مزلاج الباب ليكسره .

وبينما كان منهمكا على هذه الصورة فى فتح المقبرة إذ خرق أذنيه صوت من خلفه فجأة يقول : « أيها المونتاجى الوغد » فاذا به صوت الكونت باريس وكان قد جاء على الرغم من إنتصاف الليل وإدباره ، لينثر الزهر والدمع على جدث الفتاة التى كانت ستصبح عروسه .

وكان كما تذكر لا يدرى شيئا عن حب روميو لجوليت فلما رأى رجلا من آل مونتاجو حياله ، وهم ألد أعداء عشيرته ، ظن أن روميو قد جاء ليرتكب فعلة تدنس قبر أعداء أسرته ، فغضب وأمره بأن يكف وهم بأن يقبض عليه ، لأن اقتحام القبور كان جرما شنيعاً ، وشيئا فريا .

وعبثاً حاول روميو ابعاده مهدداً إياه بقتله وانتهى الأمر بينهما إلى امتشاق السيف وهم به روميو وهو فى حال من اليأس تركته مستخفا لايعى شيئا فجندله .

وراح الكونت التعس يغمغم وهو يجود بأنفاسه الأخيرة :

إن كنت رحيما فافتح القبر وأرقدنى بجانب جولييت .

وعلى ضياء المصباح نظر روميو إلى وجه القتيل ليتبين من يكون الفتى .

وعند ذلك أدرك أنه هو بذاته « باريس » الذى سمع بأنه كان سيتزوج بجولييت ، فنفذ إلى صدره الألم للشركة فى الشعور والرثاء لمثيل له فى البلية والشقاء ، فاحتمل برفق جثة باريس فأرقدها فى القبر بجانب رفات جولييت .

ووقف لحظة يطيل النظر إلى هيكلها الساكن الخالد ، وإلى ذلك الحسن الباهر فى الموت كما كان فى الحياة ، ثم أهوى بحنان على شفتيها بقبلهما آخر القبلات وبادر إلى كأس السم فاجترعه وخر ميتا ساكن الأنفاس .

وكانت الساعة المعينة لزوال تأثير الجرعة التى تناولتها جولييت قد حانت ، وأوشكت الفتاة أن تفيق من غشيتها ، فجاء الراهب لورنس وحده ، يحمل فأساً وحديداً ، لأن الرسول الذى أنفذه إلى مانتو ، لم يبلغها إذ صادفه فى الطريق ما عاقه عن الوصول إليها ، وعلم الراهب بالخبر ، فاسرع فى المجىء ليكون فى المقبرة

حين تفيق جولييت إذ ظن أنه مادام روميو لم يتلق الرسالة التى بعث بها اليه ، فلن يـكون حاضراً عند إفاقتها .

ولـكن بينما كان الراهب يسير فى طريقه بين القبور إذ تقدم اليه خادم لروميو كان قد جاء معه ولـكنه إمتثـالا لأمر سيده وتشدده ، وقف عن القبر بمعزل ، فأشار هذا إلى الراهب يدله على موضعه، فذهب على ضياء مصباحه يتلمس طريقه إليه وقد إمتلأت نفسه رعبا بدافع غريب لم يدرك كنهه .

بالله ما هذا النور الذى رآه مضيئا خارج المقبرة ، وما آثار الدم هـــذه التى خضبت وجه الثرى ، وما أمر هاتين الجثتين الطريحتين اللتين يرى ؟ !

واقترب رويداً فشهد جثتى روميو وباريس ، وبجانبهما جولييت قد أخذت فى رفق تفيق من سباتها المستطيل وغشيتها المتراخية .

وفتحت جوليت عينيها فرأت الراهب حيالها ، فأخذت رويداً تثوب إلى نفسها ، وعادت إليها الذاكرة .

وأنشأت تقول للراهب مسائلة : أين زوجى ؟ ! فانى حيث

ينبغى أن أكون لذاكرة ، وهنأنذى ، فأين روميو يا ترى ؟ !

فهم الراهب بالجواب ، وإذا به يسمع جلبة قوم يقتربون ، إذ كان تابع باريس قد غادر مشهد المبارزة وأسرع يطلب حارس المقبرة . .

وخشى الراهب أن يراه القوم فى ذلك الموضع مع جولييت ، وهى من بعد الموت ناشرة ، فطلب إليها أن تمضى معه مسرعة مبادرة .

ولكن جولييت كانت قد رأت روميو طريحا على مقربة منها ، فلم تشأ أن تفارق مكانها فذهب الراهب ليلتمس له مخبأ غير بعيد .

وعند ذلك شهدت روميو ميتاً ولا يزال كأس السم قائما فى يده ، وعرفت أنه حين ظنهاقدماتت ، شرب ذلك السم ، فاستولى عليها من هذه النتيجة الفجائيةحزن بالغ ، وغم محيط ، فأخذت الخنجر الصغير الذى كانت تحمله من جرابه ، فأنفذته فى قلبها .

ولما جاء الحراس فأبصروا الجثث الثلاث طرائح ، والدم المراق ينم عن نشوب مبارزة . اعتقلوا خدم روميو وباريس والكاهن

الشيخ المسكين الذى وجدوه غير بعيد ، وأبلغوا الحادث إلى مسامع الأمير حاكم فيرونا وآباه الموتى ، فحضروا جميعا .

ولما طلب الأمير إلى الكاهن الشيخ الحزين أن يدلى بشهادته قص عليه القصة من أولها إلى آخرها .

وإليك ما قال : فان شهادته موجز صالح لهذه المأساة .

« إنى لموجز شاهداً ، فان قصر أنفاسى لا يجارى طول قصة متراخية الحلقات متعددة (١) إن روميو الذى ترونه ثم ميتاً مجندلا كان لجوليت بعلا — يشير اليها فى خلال حديثه — وإن جوليت الذين تشهدون هنا ميتة طعينة ؛ كانت لروميو زوجا أمينة ، وأنا الذى عقدت لهما وقمت بتزويجهما ، وكان يوم قرانهما الخلسة ، هو يوم نهاية تيبالت التعسة . وأدت منيته الباكرة ، الى نفى القرين الجديد من هذه الحاضرة ، من أجله حزنت جوليت يومئذ واغتمت لا لمصرع تيبالت ، وأنت — مشيراً إلى الشيخ

---

(١) فى الاصل مضجرة متعبة

كابوليت — لكى تزيل عنها الهم الذى أحاط بها ، اخترت الكونت باريس ليبنى عليها(١) وكدت تزوجها قهراً عنها ، فجاءتنى مروعة تستنصحنى وقصدتنى لتستعين بى على الخلاص من زواجها الثانى ، وإلا فى صومعتى قتلت نفسها ، لتنجو من بؤسها فأعطيتها مما علمت ، ومن صومعتى تلقنت : شرابا منوما . ما أن شربته حتى ظهرت عليها من مفعوله ماأرادت . وهو أن تتراءى مائتة وهى لم تمت .

وفى الوقت ذاته كتبت إلى روميو فى مقر إقامته أستقدمه إلى هنا . فى هذا الليل الرهيب الذى يحتوينا ، ليحملها من مستقر قبرها . حين يذهب عنها مفعول الجرعة وتأثيرها . ولكن حامل رسائلى . الأخ حنا من الرهبان اخوتى . عاقته حادثة فعاد أمس إلى برسالتى . وفى الساعة المعينة ليقظتها جئت بمفردى اليها فى وحدتها لأخذها من مقابر عشيرتها على نية إبقائها فى صومعتى حتى أرسل إلى روميو رسالتى .

---

(١) يتزوجها .

ولـكن حين جئت قبل الأوان ببضع لحظات ، رأيت القتيل باريس طريحا هنا طرحة المهات ، ووجدت روميو الوفى الأمين ، مجندلا رهن المنون ، ولما استيقظت جوليت توسلت اليها وتضرعت ، أن تخرج معى وتصطبر لما قدر الله فكان، وتتجلد للهموم والأحزان، ولـكنى سمعت جلبة روعتنى ، فالتمست بعيداً من القبر مكمنى! أما هى فمن فرط اليأس أبت رحيلا ! وها هى ذى كما أرى أودت نفسها قتيلا .

كل ذلك كنت به عليما ، وكانت مربيتها لسر الزواج كتوما فان كان لى فيما جرى ذنب وجريرة ، أو أتيت به أمراً منكوراً ، فلتكن حياتى الفانية ، هى التضحية للقانون وإن استوجب القسوة المتناهية ، فما في حياتى من الساعات غير بقية ، فلتكن منيتى قبل هذه البقية الباقية . »

وانثنى خادم الـكونت باريس من بعده يروى كـيف وقعت المبارزة على المقبرة، وتلاه خادم روميو فقص كيف ركب مولاه من مانتوا . فوضحت للقوم القصة المحزنة بكل أدوارها ، واستدار الأمير إلى الشيخين مونتاجو وكابوليت فبين لهما فى عتب وملامة.

كيف كانت الخصومات الحمقاء بين العشيرتين هي السبب الأول في هذه الاحداث والنكبات

فما كان من الفريقين أخيراً ، وبعد كل هذه المصائب والويلات إلا أن أقبل بعضهم على بعض متصالحين ، وأقسموا على الصداقة وتحالفوا على السلام والوئام . . .

سمبلين ملك بريطانيا

كانت بريطانيـا فى الايام الاولى من تاريـخ الدولة الرومانية العظيمة .. لايزال يحكمها ملوك من أهلها وبنيها . وقصتنا هذه تتحدث عن حياة الملك سمبلين بما تعاقب عليها من خير وشر ، وسعد ونحس . وعن ابنته ايموجن فقـــد قضت زوجته الاولى نحبها .. حين كان أولادها الثلاثة منها أحداثا صغارا . وهم ولدان وبنت . فسرق الولدان من غرفة مهديهما .. بطريقة غامضة خفية لم يعرف احد عنها شيئا . ولم يهتد أحـد الى الغلامين أو يقف لهما على أثر وبقيت ايموجن ابنة الملك فنشأت فى بلاط أبيها .

وتزوج أبوها عقب وفاة أمها بأرملة ذات ولد من زوجها الاول وكان الولد يدعى كلوتين . فانقلبت هذه الزوج امرأة أب قاسية على ايموجن . تضمر لها الكراهة والبغضاء ، لان الحق فى سرير الملك سيؤول بعد وفاة سمبلين اليها . ولا

يؤول لولدها كلوتين . ولكنها لهذا الباعث ذاته جعلت تكيد كيدها لتزويج ايموجن به . مؤملة بذلك ان يصبح هـو صاحب السلطان الفعلى فى بريطانيا . . عقب وفاة سمبلين . ومآل الملك الى ايموجن وريثته ، مادام كلوتين قد صار لها زوجا .

ولكن خطة امرأة الاب لم تصب رائد التوفيق . لان ايموجن لم تكن تميل الى الزواج بكلوتين فقد كان أثرا (١) وكانت تزدريه وتنفر منه وذهبت فى السر تتزوج من سواه . دون استشارة الملك أو موافقة الملكة .

وكان زوجها « بوستيوماس » شابا كريم الخلق .. على جانب من الادب والعلم . ضليعا من معارف عصره .. وكان أبوه جنديا باسلا ... وهو يقاتل فى حروب سمبلين وغزواته قبل مولد غلامه . وماتت أمه وهى تضعه فكفله سمبلين وقام على تنشئته فى بيت الملك . ومن هنا عرفته ايموجن وأحبته

---

(١) من الاثرة وهى حب الذات

.. وقد نشأ رفيقين من بكور الطفولة يرتعان معا ويلعبان .

وما لبث جواسيس الملكة وعيونها الذين بثتهم حــول ابنة زوجها ليحملوا اليها أخبار حركاتها وسكناتها أن وافوها بنبأ هذا الزواج فبادرت الى الملك فخبرته به فوجــد على ابنته وغضب عليها غضبا شديدا . لانها لم تستشره ، فى أمر زواجها . ولانها تزوجت بفتى من رعاياه لايمت الى البيت المالك بنسب . وحكم على بوستيوماس بالنفى المؤبد من المملكة .

أما الملكة فمن مكرها أخفت غضبها وسعت فى كسب ثقة ايموجن باظهار العطف عليها واصطناع الرثاء لها ، وظنت أنها قد تحملها فيما بعد على التخلى عن هذا الزواج ، من أجل حبها لوالدها الملك . فيتمهد بذلك السبيل الى تزويجها بكلوش .

واثنت فى تظاهرها بالرثاء للزوجين الشابين تدبر لهما انسبيل للخلوة الاخيرة بينهما قبل ان يزمــع بوستيوماس انرحيل الى روما التى اختارها منفى له .

وفى هذا الأجتماع تودع العاشقان وداعا قصيرا ولكن مليئا بجوى الحب ، وحرقة النوى . وأعطت ايموجن زوجها خاتما من الماس (١) كان من قبل لامها ، فوعدها بوستيوماس أنه سيظل دائما أبدا الحريص عليه فلا يفارقه .

وشـبك هو بدوره حول معصمها سوارا وناشـدها الا ما حفظته أبدا رمزا لحبه ، وتبادلا العهود والمواثيق على الوفاء والاخلاص مدى الحياة .

وكذلك لبثت ايموجن فى بيت أبيها ، مستوحشة حزينة خلية من السلوى واتخذ بوستيوماس بعد سفر طويل ، فى روما مقاما له ومستقرا .

وفى روما عرف خلقا كثيرا واختلط بمجامعها ، واختلف الى أسمارها ، ففى ذات يوم جمعتـه المصادفات بنفر من الشباب يمتون الى جنسيات مختلفة ، فجرى الحـديث

---

(١) الالماس بالهمزة لانها أصلية فيها .

بينهم عن نساء بلادهم والموازنة بينهن فى مبالغ الجمال وحسن الخلق ، فأنشأ بوستيوماس وهو يتمثل ايموجن الحاضرة فى خاطره ، يثنى الخير على خلقها ويمدح ادبها ، وينوه قبل كل شيء باخلاصها ووفائها .

وكان فى المجلس ايطالى يدعى « يواكيمو » فانكر بشدة ـ ان تكون سيدة فى بريطانيا اكثر اخلاصا من أية واحدة سواها وراح يراهن على استعداده لاثبات ذلك قائلا انه مستعد للشخوص بنفسه الى بريطانيا والظفر بمحبة ايموجن وحملها على ان تعطيه السوار الذى أقسمت على الاحتفاظ به أبدا ، فاذا تواتى له ذلك ، كان دليلا على أنها لم تكن وفية لزوجها .

فما كان من بوستيوماس فى لحظة من لحظات التهور والجهالة الا أن قبل هذا التحدى .

واتفق يواكيمو على أنه اذا فشل فى الظفر بالسوار دفع الى بوستيوماس قدرا كبيرا من المال ، واذا هو اصابه

دفع بوستيوماس اليه الخاتم الالماسى الذى عاهد ايموجن على أن يلبسه أبدا ولا يفارقه .

لقد كان لبوستيوماس من الايمـــان بوفاء ايموجن واخلاصها ما جعله يسخر من فكرة خسارة الرهان الـذى نراهن عليه .

وارتحل يواكيمو الى انجلترا وقدم الى قصر سمبلين ولم يجد مشقة فى الدخول على ايموجن اذ ادعى انه صـديق لبوستيوماس ، وكان هـــذا قد حمله كتابا ذكر فيه أن يواكيمو من صحابته .

وحاول يواكيمو ان يزعزع ايمان ايموجن باخـلاص بوستيوماس فراح يفترى « الكذب عليه » زاعما انه يحيا فى روما حياة مرحة كأنما قد نسيها ولم يعد يهتم بها ، ثم ذهب يكاشفها بالحب ويصف فتونه بسحر جمالها ويحاول اكتساب محبتها ، ولكن ايموجن ردته عنها ساخرة مزدرية .

ولما أدرك انه لن يؤاتيه التأثير فى نفسها حتى تنزل له

عن السوار راضية ، عمد الى الحيلة ، والتجأ الى المكر والخدعة فزعم أنه قد جمع من انجلترا عدة هدايا قيمة لاصحابه فى ايطاليا وانه قد اودعها حقيبة من حقائب أمتعته لانه يخشى ان تسرق قبل الرحيل من البلاد ولانه لم يجد مكانا أمينا يصونها فيه .

وصدقته ايموجن وأذنت له فى حفظ الحقيبة فى مخدعها حيث تبقى فى مأمن من السراق ، وبمنجاة من اللصوص فنبأها بأنه سيرسل الحقيبة اليها فى ذلك المساء بالذات .

ووصلت الحقيبة فى الموعد المضروب وحملت الى مخدع ايموجن ، ولم يكن فى جوفها شيء من هدايا ولا نفائس كما زعم ، وانما كان هو بنفسه مختبئا فى جوفها لحاجة فى نفسه يريد قضاءها .

ولما أوت ايموجن الى فراشها وأخذ النوم بمعاقد جفنيها تسلل يواكيمو من جوف الحقيبة محاذرا وأرسل البصر فيما حوله حتى وعى فى ذاكرته جميع معالم نظامها ، وحفظ فى

خاطره كافة ماحوت من صور وتماثيل ، وأثاث ورياش ، وأشباهها ، ثم استرق الخطى الى ايموجن النائمة وبكل خفة افتك السوار من حول معصمها وتسلل عائدا الى جوف الحقيبة كما كان .

فلما كانت الغداة ، حملت الحقيبة من مكانها ، فخرج « يواكيمو » من جوفها وغادر القصر وقفل راجعا الى ايطاليا وعلى أثر وصوله الى روما ذهب فى جرأة الى بوستيوماس وادعى أنه قد كسب الرهان واستحقه ، غير ان بوستيوماس بالطبع لم يصدق قوله ، فما كان منه الا ان أنشأ يصف له مخدع ايموجن وجملة ما حوى من صوره ورياشه ، ثم أخرج السوار فعرضه على عينه قائلا انها قد اعطته اياه ، بل ذهب يصف شامة على نحرها .

فاقتنع بوستيوماس بأن يواكيمو قد استرق عاطفتها واستلب فعلا حبها فانفجر سخطه على زوجته الغادرة وسلم

الى مراهنه خاتمه الالماسى تنفيذا للاتفاق الذى جرى بينهما

واتوى بوستيوماس من فرط غضبه واحتدام نار الغيرة فى صدره ان ينتقم من ايموجن فكتب الى احد أتباعه وهو رجل يدعى (بيزانيو) كان صديقا حميما له فى انجلترا ينبئه بخيانة زوجته لعهده . ويلح عليه فى السعى عندها لتغادر بلاط الملك فيصحبها الى ثغر على سواحل ويلز ببلاد الغال يدعى « تليفورد هافن » وهناك يقتلها ومع الرسول الـذى حمل الكتاب الى صديقه بعث الى ايموجن بكتاب يقول لها فيه انه لم يعد يطيق العيش بعيدا منها ويرجو اليها فى الكتاب أن تشخص مع بيزانيو الى الثغر المعين فى بلاد ويلز فتترقب مقدمه من روما لانه وان كان لايجوز له دخول انجلترا او يستهدف لعقوبة الموت ، فلا بأس عليه من دخول ذلك الثغر القائم على سواحل ويلز .

ولما تناولت ايموجن كتابه دفعها حبها له الى اعـــداد

العدة فى الحال والسفر مع بيزانيو الى الوجهة المعينة فى تلك الليلة بالذات .

ومهما يكن العزم الذى اعتزمه « بيزانيو » حين خرج بايموجن يريد وجهه . فلم تكن نفسه لتطاوعه على تنفيذ مهمته عندما يحين وقت العمل .

ولما اقتربا من الساحل انشأت ايموجن تسأله أين ومتى يجتمعان بزوجها العزيز وتشرح له شدة لهفتها على لقـائه فلم يجب بيزانيو على أسئلتها ولكنه دفع اليها بالكتاب الذى جاءه من بوستيوماس فانثنت فى ذهول وغم وأسى بالغ تقرأ ما حوى الكتاب من اتهام زوجها لها بالخيانة والغدر والحنث بالعهد وتكليفه صاحبه هذا بقتلها .

وكان الكتاب يحوى هذه العبارات : « دع يديك تستلبا حياتها وانى لمهيىء لك الفرصـة فى هلفورد هافن لانتزاع روحها وعندها منى كتاب لهذا الغرض » .

فلم يكن ثم ريب فى أن هذه اتعليمات قد كتبت بيد بوستيوماس وخطه ولكن يا لله ، ما الذى حول خبه هكذا الى كراهية . وبدل من كلفه بها مقتا .

لقد استغلق الامر عليها وحزنت مما علمت حزنا لا حدود له حتى لقد بلغ من غمها ان بدت لها الحياة غير خليقة بان تحيا ، والدنيا ليست حقيقة بان تعيش فى اكنافها ، فاستلت سيفا لها ، ودفعت به الى كف بيزانيو وانشأت تقول :

« هأنذى استل السيف بنفسى فخذه ، واضرب به مسكن حبى ، وانفذ به الى قلبى ، ولا تخش فانه قد خلا من كل شىء الا الاسى والجوى وقد غادره من له كان صاحبا ، وكان عامرا به غنيا . يوم كان له وليا فاصدع بما امرك ، وهلم اضرب ! »

ولما رأته يتراجع عادت تلح عليه أن يضرب ، قائلة : أناشدك ألا ما عجلت فان الحمل يلتمس القصاب ، أين

سكينك ، انك لمبطىء فى تنفيذ ما أراد مولاك وما وددته أنا كذلك .

فجعل بيزانيو يشرح لها الالم النفسى الذى قاساه من الامر الذى بعث بوستيوماس به اليه ، وهو الامر بقتلها ، قائلا انه ليؤثر أن يقترف أية فعلة على ان ينفذ ما عهد به اليه ، وأنشأ يسرى عنها . ويواسيها ، بكل ماوسعه من تسرية وما ملك من مؤاساة ، وانثنى يقـــول لها لعلها فى يوم ما مكتشفة ان عدوا قد سمم خاطر بوستيوماس من ناحيتها ودس عنده عليها ، ويومئذ لعلها مزيلة باعث هذه المحنة التى امتحنت بها .

ولم تكن ايموجن فى حال نفسية تسمح لها بالعودة الى بلاط أبيها وأرادت لقاء زوجها لتهتدى الى سر هـــذا التحول الفجائى منه ، ولتسترد حبه ، وتستعيد رضاه .

وعند ذلك أخذ بيزانيو يفكر فى وسيلة تساعدها على

السفر الى روما ، والتماس مكان زوجها ، وكان سفيرروما في ذلك الحين ، لدى بلاط سمبلين قائدا عسكريا يدعى « كاسياس لوسياس » . وكان يزمع الرحيل الى ايطاليا فاقترح عليها بيزانيو ان تتنكر فى زى غلام وتلتمس الخدمة عند ذلك السفير فلعلها بهذه الوسيلة واصلة الى روماكبعض تبعه .

فأقبلت ايموجن علىهذه الفكرة فى لهفة ، وعمل بيزانيو على تهيئة الثياب التى تحتاج اليها ثم استأذنها خشية ان تطول غيبته اكثر من ذلك عن بلاط أبيها ، ولكنه قبل ان يتركها دفع اليها بحق صغير قال ان الملكة كانت قد اعطته اياه وأخبرته أنه يحوى دواء يشفى من الادواء جميعا .

وكانت حقيقة امر هذا الحق هى ان الملكة كانت تكره بيزانيو لصداقته الوفية لايموجن وبوستيوماس فدبرت للخلاص منه ، وكادت لمصرعه كيدا ، فدعت اليها طبيب

البلاط ، وكان ذلك قبل سفر بيزانيو وايموجن بقليل — فطلبت اليه ان يوافيها ببعض السموم مدعيـــة انها تريده لتجربته فى الحيوان ، فتظاهر الطبيب بامتثال امرها، ولكن العقار الذى قدمه اليها لم يكن فى الواقع ساما ، بل لا أذاة منه ولا ضرر ، ومن يشرب منه يذهب فى سبات اشبه بالموت بضع ساعات ، ثم يفيق بعد ذلك وما به شىء اكثر من هذا أثرا .

ولما أخذت الحق من الطبيب بعثت فى دعـــوة بيزانيو فطلبت اليه ان يســعى فى اقناع ايموجن بالتخـــلى عن بوستيوماس وقبول كلوتين لها بعلا . واعدة اياه ان تخلع عليه جميع القاب الشرف والخلع والهدايا اذا هو حقق طلبها ولكى تريه مبلغ تقديرها له أهدت اليه حقا قالت انه يحوى الشفاء من كل داء . وهى فى ذات نفسها تعتقد انه سم قاتل متعللة بانه سوف يشربه فيتخترمه الموت وبذلك تحـــرم ايموجن من أخلص الاصدقاء . وأوفى الاولياء .

ذلك هو الحق الذى اعطاه بيزانيو لايموجن رغبة منه فى خدمتها . اذ كان يعتقد بالطبع انه يحوى دواء عجبا .

وحين فارقها بيزانيو ، استأنفت السير الى ثغر «تليفورد هارفن» وكان بيزانيو قد وقف يشير اليه من بعيد وهمافوق قمة الجبل .

وكان بينهما وبين الساحل غابة فضلت فيها الطـــــريق وانقضى يومان عليها هائمة على وجهها بين الدوح والشجر حتى ادركها اللغوب (١) وغشيها من الجوع ماغيشها ، حتى كاد اليأس يستولى عليها ، ولكن لحسن الحظ ما لبثت ان أنت على درب مطروق فسلكته وأفضى بها بعدقليل الى كهف فأطلت ببصرها على جوفه فوجدت طعاما وفراشا ولم تجد آدميا ، فدخلت تمشى على حذر ، وتناولت قليلا من الطعام الذى أبصرت به اذ كانت توشك ان تهلك سغبا (١)

وما كادت تنتهى من الطعام حتى طرق سمعها اصوات قوم يدنون . وما لبث ان دخل عليها الكهف ثلاثة رجال ، شيخ وفتيان فى مثل سنها أو نحوها ، فما ان وقعت ابصارهم على هذه الطارئة حتى انبعث من أفواهم صيحات الدهشة ولكن ايموجن كشأنها الشجاع ابدا أخفت مخاوفها منهم وتجلدت لمباغتتهم وراحت تقول انها جاءت على سفر تريد ثغر تليفورد هافن .

وأفرخ روعها ، وخف ما بها من الخـوف ، حين رأتهم يرحبون بها فى عطف ويؤهلون بمقدمها . . ويهيئون فى كهفهم مبيتا لهذا « الغلام » اذ حسبوها كذلك وهى متنكرة .

ولم يكن هذان الفتيان فى الحقيقة الا اخـويها اللذين اختطفا من سنين مضت من بلاط سمبلين . وما سرقهما غـير الشيخ الذى كان معهما ويدعى بلاريوس . وكان من قبـل ضابطا فى جيش الملك وابلى فى حروبه ضد الرومان بلاء

حسنا ، وانماز على اقرانه شجاعة واقداما ولكن خصومه وحساده وشوا به عند الملك متهمين اياه بالخيانة فصدق الملك اتهامهم ونفاه من بلاطه ؛ فاراد بلاريوس البرىء ان ينتقم لنفسه فاسترق الطفلين من المهد وهو ينوى قتلهما . ولكن نفسه لم تسول له فعلته فابقى عليهما وأقامهما معه فى المأوى الذى اصطنعه لنفسه فى الغابة ومن الالفة احبهما كحب الاب ولديه ، وكانا يعتقدان انهما ولداه حقا .

ونشأ الصبيان همامين شجاعين جسورين يعيشان فى الغابة من الصيد ولا ينفكان يرجوان الى بلاريوس انيأذن لهما فى الخروج الى الحروب يجدان فيها ما كتب لهما من حظ وقسمة .

وسرت ايموجن ان دعوها الى المكث معهم الى حين فقد كانت تحس اعياء وسقما . وعجب الشابان . وهما يحسبانها غلاما . من براعتها وحذقها فى اعداد عشائهما وراقهما منها

ادابها ورقة شمائلها .

وكذلك اقامت بين ظهرانيهم بضعة أيام قبل استئناف المسير الى « تليفورد هافن » وقـــد اصبحت هى وهما أصدقاء وأولياء وان لم يعلموا أنهم فى الخق أخوة .

وكان بلاريوس والشقيقان كلما كادت المؤونة فى الكهف تنفد (١) خرجوا يطلبون صيدا . ولكن « فيديل » . وهو الاسم الذى اطلقه القوم على ايموجن وقد تصوروها حقا غلاما ــ كانت لاتزال رهن الاعياء والسقام فلم تكن تخرج معهم . واذا ما خلت الى نفسها الحت عليها همومها واشتدت عليها أحزانها واوجعها التفكير فى قسوة زوجها . فاستولى السقم على نفسها وعند ذلك تذكرت الدواء الذى أعطاها اياه بيزانيو فاجترعته على أمل ان يكسبها قوة . ولكنها ما كادت تفعل حتى تولاها سبات عميق .

ولما عاد الصيادون الثلاثة من الصيد بلحم غزلان وأيل ،

استبق الكهف (٢) بوليدور احد الاخوين فبصر بايموجن راقدة فحسبها وسنى ، فخلع نعليه الضخمين وتسلل مترفقا فى خطوه ولكنه لما لم يجد شيئا قد اقلق النائمة من نومها ، حتى وان لمست او حـركت ، ظن ان المـوت قد عاجلها فاحتملها بين ذراعيه وخرج بها الى رفيقيه ، فحزن ثلاثتهم اشد الحزن على فقدهم هذا الصديق الجديد الذى أمسى فيهم كأنه بعض اسرتهم الصغيرة .

واقترح بلاريوس على الاخوين حملها الى خميلة ظليلة فى الغابة ، فاحتملوها جميعا وانشدوا على جثمانها أناشيد الحداد والندبة وضجعوها برفق فوق العشـب الناضر ، وغطوها باوراق الشجر ونثروا عليها الزهر والرياحين .

وفارقوها فراق حزين قد فجع .

غير ان مفعول الدواء أخذ بعد لحظة يتبدد ، وبدأت

ايموجن تثوب رويدا الى رشدها ، ثم ما لبثت ان ارسلت بصرها الناعس فيما حولها ، فتذكرت حوادث الايام القليلة الماضية ، ولكن كما يتذكر المفيق من النوم حلما بدا له فى الكرى ، واستوت تلتمس طريقها الى الكهف ، فلم تهتداليه ولا الى صحابها الذين عرفتهم منذ حين فلم يبق فى نفسها شك فى ان ذلك كله كان حلم الحالمين .

وانطلقت تسير مكدودة على أمل ان تصـــل الى ثغر ملبفورد هافن اذ كان كل بغيتها ان يواتيها الرحيــــل الى ايطاليا لتبحث عن زوجها بوسيتوماس .

وبينما كانت هذه الحوادث الاليمة تجرى لايموجن ، كانت حوادث عجيبة جارية فى بريطانيا ، فقد كان الرومان قبل عهد سمبلين قد غزوها واكرهوا أهلها ـ البريطان ـ على التعهد بدفع جزية سنوية ، ولكن سمبلين أبى فترقمن

الزمن أن يرضخ بها لهم ، فأرسل امبراطورهم القائد لوسيان على رأس جيش لغزو بلادهم . وفى الوقت الذى كانت ايموجن تسير فى الغابة على غير هدى ، كان القائد الرومانى على رأس مقدمة جيشه يزحف مخترقا ذلك الاقليم بالذات .

وجاء بوستيوماس مع هذا الجيش فيمن جاءوا وكان لا يزال يعتقد ان ايموجن قد خفرت عهده وان بيزانيو قد نفذ امره وقتلها اذ كان هذا قد كتب اليه رسالة بهذا المعنى . فلما قرأه بدأ يندم مر الندم على ماكان منه وعاوده حبه لزوجه العزيزة ، وحملته الندامة على فعلته ، والاسف على محبته . على امتشاق السيف دفاعا عن المملكة التى كانت زوجه ستصبح ملكتها وربة تاجها . ولذلك عزم على ان يفارق جيش الرومان والانضمام الى جيش البريطان اذ لم يعد من فرط الهم الذى استولى على قلبه . يقدر

كبير قيمة للحياة . بل لم يكن ليتردد فى لقاء الموت محاربا او يروح بامر سمبلين قتيلا جزاء على رجوعه من المنفى بغير استئذان .

وأتى القائد الرومانى لوسياس فى جماعة من رجاله على ايموجن وهى ضالة فى الغابة هائمة على وجهها ، وكانت كما تعلم فى زى غـلام فما لبثت آدابها وهيئتها وتصرفاتها أن اجتذبت قلب لوسياس واستهوته فادخلها فى خدمته وجعلها وصيفا فى حاشيته .

وفى هذا الوقت سمع الشقيقان اللذان اوياها فى كهفهما من الجنود فى الغابة ان حربا قد نشبت وان معركة لا محالة واقعة وانطلقا غير متمهلين بل متلهفين للانخراط فى جيش البريطان ، فقد كان الفتيان يتوقان الى النبوغ والتبريز ، وعندذلك استيقظت فى نفس بلاريوس خليفة المحارب القديم فحتم الذهاب معهما وان أصبح شيخا متقدما فى العمر .

وكان فى جيش الرومان يواكيمو وقد عين فى هيئة اركان حرب القائد لوسياس .

ونشبت معركة كبيرة بين الجيشين وانتهى الرومان أخيرا باكراه البريطان على تولية الادبار وأمست حياة الملك سمبلين فى خطر .

وكانت النكبة موشكة أن تروح عامة ، والمصاب عظيما ، لولا الشجاعة الخارقة التى أبداها بوستيوماس والشيخ المغوار بلاريوس والاخوان الشقيقان فقد وقفوا للعدو بالمرصاد فى مسلك ضيق وردوا جيشه على الاعقاب وتركوا للبريطان فسحة من الوقت لاسترداد مواقفهم ومفاجأة الرومان من طريق غير الطريق الذى تلاقوا من قبل فيه حتى اوقعوا فى النهاية بهم . وأسروا خلقا كثيرا منهم . وفى الاسر لوسياس قائدهم ، والكذوب المحتال يواكيمو ، وايموجن المتنكرة فى زى الفتيان .

وكان بوستيوماس ، من فرط ندامته وحزنه لموت ايموجن ، يلتمس الموت فى القتال ، ويرجو الردى فى مضطربه وساحته ، فعز عليه الموت ولم يجد فى القتال تحقيق طلبته ، فسلم نفسه بعد الموقعة الى جنود من جيش سمبلين ، أخذوه أسيرا وهم لا يعلمون من أمره قليلا ولا كثيرا .

ولما انتهى القتال ، وتمت المطاردة ، سيق بأخطر أسرى الرومان شأنا الى الملك سمبلين ، وهم القائد لوسياس ووصيفه ويواكيمو ، وفى أثرهم وقف بوستيوماس بين حارسين وهو فى اطمار من ثياب القرويين ، بينما كان بيزانيو فى الحاشية ، وقد وقف غير بعيد من الملك .

ولم تكن الملكة حاضرة ولا ابنها كلوتين فى الماثلين ، لانهما كانا قد ماتا ، اذ قتل كلوتين منذ وقت قريب فى مشاجرة ، وأما الملكة فقد اختنقت فيما كانت تكيد له كيدها وهو تزويج ايموجن من ولدها ، وعذبها الشعور بجريرة الذنب الذى

اقترفته ، والندامة على ما أتته فمرضت وأسلمها المرض الى الموت فقضت منذ أمد غير طويل .

فلما مثل الاسرى فى حضرة الملك سمبلين أعلنهم برغبة أهل الجنود الذين سقطوا فى الحومة من البريطان وهى أن يكون الحكم على الاسرى الرومان بالاعدام .

وأجاب القائد الرومانى لوسياس انه عن نفسه متقبل هذا الحكم ، كما ينبغى لرومانى ولكنه انما يسأل الرحمة لوصيفه ، قائلاً انه ليس برومانى ولكنه بريطانى وما نال بالاذى أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء .

فنظر الملك الى الوصيف فلم يتبين ابنته فى تنكرها وان حرك مظهرها على عينه فى نفسه شيئا من الالفة والميل فقال للوسياس : « لاشك عندى فى أننى رأيته من قبل فان هذا الوجه أعرفه » واستدار الى ايموجن فانشأ يقول :

« يافتى ...

« أنت نفذت بنفسك فى نفسى ، وملكت على حسى ، وأنت بعض شخصى ، فما أدرى لم ومم أقول ، عش يافتى واحى ، ولا تقل مطلقا شكرا يا مولاى ، ولكن عش ولتكن لك الحياة .

« وسل سمبلين من العطايا ما تشاء ، وما يليق عندى بسخاء ، ويجمل منك بهذا الشفاء ، فانى معطيكه ، ولو كان اسيرا . أو كان فيهم كثيرا » .

وقد أراد سمبلين بقوله أنه سوف يهبها عطاء انه قدر وقدها أن يهبها أى شيء تسأله ، مهما كان شأنه وخطره .

ولما كان الكبر فى الاسرى ، وأسماهم قدرا كما قال ، هو لوسيوس ، وكان هو ذاته الذى ناشد الملك أن يخلى عن ايموجن ، توقع الحاضرون جميعا ان تكون الهبة التى سوف تسأل الملك اياها ، هى التخلية بين لوسياس والحياة .

ولكن ايموجن كان لها مقصد آخر ، فقد رأت وتبينت في الاسرى ، بوستيوماس ، بل يواكيمو كذلك وأبصرت في أصبع هذا الخاتم الالماسي ذاته الذى كانت قد أعطتـه الى بوستيوماس من أعـوام ماضية ، ذلك الخاتم الذى أقسم ليبقينه فى أصبعه أبدا ، كرمز من الوفاء لها والاخلاص .

فحدقت ايموجن فى يواكيمو عينيها وأنشأت تقول انها لا تسأل الملك الا شيئا واحدا ، وهو أن يحمل يواكيمو على الاعتراف بالوسيلة التى أتاحت له الظفر بذلك الخاتم الذى يلبسه فى أصبعه .

فوجه الملك الى يواكيمو نذيرا ليعذبه عذابا أليما ان هو لم يعترف اعترافا تاما ومن ثم أنشأ هذا يقص قصـــة رهانه مع بوستيوماس والخطة السافلة التى دبرها للظفر بالخاتم .

وأدرك بوستيوماس أخيرا الحقيقة . وكان واقفا فى ناحيته وتبين له فجأة ان ايموجن كانت أبدا ولا تزال المخلصـــة

الوفية بعهده . وانهـا الزوج النقية البريئة التى كان قد أمر بقتلها ، فما أن تذكر ذلك كله حتى ثار حنقه على يواكيمو واشتدت به الندامة وتأنيب الضمير على ما اقترف هو وأثم، وتجاوز الندم فى نفسه كل حد ، ولكنه الى تلك اللحظة لم يكن تبين بعد ، أن هذا الوصيف يخفى من وراء ثيابه وبزته، ايموجن زوجته .

ولكن ايموجن لم تطق صبرا على رؤية زوجها المحبوب هكذا مشدوها حزينا موجعا . فكشفت له عن خافية أمرها ، وأحالت ألمه وعذاب نفسه طمأنينة غير مصدقة ، وفرحة من تناهيها ومباغتتها لاتعتقد . فقد ردت اليه الروح التى كان يحسبه قد قتلها والضر الذى ظنه قدأحدثه لم يحدث أبدا .

وما كان أشد اغتباط سمبلين كذلك حين وجـد ابنته الغائبة قد عادت اليه فقد بلغ من فرحتـه بها انه راح يوافق غير متردد على زواجها ببوستيوماس الذى أصبح معترفا به عنده كزوج ابنته .

وقد بقى أمام ملك بريطانيا مزيد من فرح ادخره الزمان له ، فان ولديه وهما شقيقا ايموجن كما تذكر جيـــدا ، كانا قد خطفا وهما فى المهد صبيان .

وعندئذ تقدم بلاريوس وقال للملك وهو اليهما مشير ، أنهما ولداه المخطوفان من طوال السنين .

وعرف الملك أن ولديه هذين ، والشيخ بلاريوس الذى تبناهما ، هم ثلاثتهم الذين ردوا أخيرا الهزيمة نصرا .

وعرفانا بجسام فعالهم ، واغتباطا بمستعاد ولديه ، صفح عن بلاريوس وغفر له جرمه حين استرق ابنيه .

وأدخلهم فى عداد حاشيته وأهل بيته مرحبا بهم مكرما لهم .

واستجاب الملك لسؤال ايموجن فخلى عن حياة لوسياس القائد الرومانى وبالاشتراك معه وضع الملك صلحا مع الدولة الرومانية ، أمنت بريطانيا من بعده الغارة عليها الى أجل بعيد.

بل حتى الكذوب المحتال يواكيمـــو مضى بغير عقـــاب ما دام قد اعترف بالشر الذى أحـــدث ، وأقر بالاذى الذى أتى ، وما دام الاذى قد استحال خيرا .

مهزلة الاغلاط

حدث أن قام نزاع بين دولة (١) سراقوسة فى صقلية ، ودولة ايفيسوس فى آسيا الصغرى . فحمل الدولة الثانية على سن قانون يقتضى كل تاجر يدخل بلادها قدرا كبيرا من المال كرهينة أو يعاقب بالاعدام .

ولذلك حين وجد قوم ايفيسوس فى مدينتهم تاجرا كبير السن من أهل سراقوسة يدعى « ايجيون » استاقوه الى حضرة الدوق مطالبين بأن يدفع الرهينة أو يفقد الحياة .

ولم يكن ايجيون يملك مالا ، أو كان معه القليل النزر منه ، فحكم عليه الدوق طبقا للقانون بالاعدام وسأله عن الباعث الذى حمله على النهور فى دخول المدينة .

فأنشأ ايجيون يقص عليه القصة الحزينة التالية التى جرت له فى حياته .

---

(١) الدولة هى الولاية المستقلة وقد كان العالم قديما يحوى مدائن تستمتع باستقلالها ولها حكومة قائمة بذاتها

قال : كان مولدى فى سراقوسـة ، واشتغلت بالتجارة حين شببت عن الطوق وحسنت فى التجارة حالى ، ولازمنى التوفيـق فتزوجت وهنـأنى الزواج ، ولكن اتفق لى أن شخصت الى مدينة نائية تدعى « ابيداموم » لبعض شأنى ، فاحتجزنى عملى فيها أكثر من ستة أشهر ، ولما لم أطق صبرا على فراق زوجتى أطول من هذا أمدا ، بعثت اليها استقدمها لتوافينى . فما لبثت عقب مقدمها أن وضعت غلامين توأمين . كان تمام الشبه بينهما لا يدع أحدا يميز بينهما أو يفرق أخا من أخيه .

وكان عجبا يومئذ أن امرأة رقيقـة الحال كانت تنزل بالخان ذاته وضعت كذلك توأمين كلاهما أشبه بأخيه وعجز أبواهما من الفاقة أن يكفلاهما ، على حين كنت أنا الموفق الحسن الحال ، فخطر لى أنه يحسن بى أن أربيهما بمثـابة خادمين لولدى فاشتريتهما من أبويهما .

وحنت زوجتى بعد فترة طويلة من الزمن قضيناها عن

بلادنا نازحين ، الى العودة الى سراقوسة فأجبت سؤلها وأطفأت حنينها .

ومن ذلك الحين بدأت همومنا ، وأدبر الحظ عنا ، فقد هبت على سفينتنا عاصفة عاتية وكادت تذهب فى اليم مغرقة فاجتمع ملاحوها فى زورق لها وحاولوا بالمجاذيف بلوغ الساحل ، وخلفونا نحن الركاب المساكين على ظهرها فلم أدر كيف السبيل الى النجاة بزوجى الباكية والولدان الصغار ، ولكنى لجأت أخيرا الى ربط زوجتى والغلامين اللذين هما أسبق من الآخرين فى لحظة الميلاد الى سارية فى السفينة وأحكمت الرباط ، وربطتنى أنا والغلامين الاصغرين فى أخرى ، وقلت مناجيا الخاطر اذا غرقت السفينة فى جوف اليم ظلت هاتان الساريتان على صفحته طافيتين وحمت المشدودين اليهما من الغرق ، وقد تمر بهم سفينة فتلتقطهم .

وكان ما توقعت فقد ألقت العاصفة بسفينتنا فوق صخرة ، فهشمتها فأحالتها قطعا متفرقة ، بينما مضت

الساريتان فى البحر سربا وهما تحملاننا . ولكنهما ما لبثتا أن تفرقتا فلم أستطع مد يد المعونة لزوجى والولدين .

ولشد ما سرى عنى حين لمحهم قارب صيد أحسبه قادما من كورنث فاحتملهم أصحابه كما بدا لى الامر من بعيد . ولكنهم لم يعودوا يبصروننا ولعلهم ظنوا أننا قد ذهبنا فى المغرقين .

وما لبثت سفينة أخرى أن أدركتنا وأقبل نوتيتها علينا فنجوا بنـا من اليم وأحسـنوا الينا وردونا الى وطننا فى سراقوسة سالمين .

ومن ذلك العهد الى الان لا أعلم ماذا صنع الله بزوجتى وغلامى والغـلام الاخر من المرأة التى كانت تساكننا فى الخان .

على أننى وان كنت قد فقدت زوجتى وأحد الغلامين ، فقد بقى لى غلامى الاخر ، والغلام الاخر الذى جعلته له تبعـا ، وأقام غلامى معى فى سراقوسـة حتى أدرك شأو

الرجال ، ولكن لم نكن ننقطع عن التفكير ف أولئك الاعزاء الذين فقدناهم وظلت الحسرات فى نفوسنا عليهم باقيـة ، فانتوى غلامى أخـيرا أن يخلفنى فى المدينـة ويذهب هو يلتمسهم فى رحاب الارض وأرجائها .

وأذعنت له على كره منى الى رجائه وتوسلاته فسافر هو وخادمه لتنفيذ هذه المهمة ، ولكن وا أسفى على أننى أذنت له فى الرحيل . فقد انقضت اليوم سبع سـنين على آخر عهد غابه .

ولما لم يعد بعد السنتين الاولين ، خرجت أنا كذلك من سراقوسة لابحث عن الغائبين . ولكن عبثا حاولت العثـور عليهم ، وان كنت قد جبت الارض شرقا ومغربا ، بل لقـد خاطرت بنفسى وجئت الى هذا الموضع للتفتيش عنهم علما بأنى اذا لم أجدهم فى هذه المدينة ، استرحت وشـيكا من الحياة ذلك بأنى أموت سعيدا لو قد عرفت فقط أن زوجتى والولدين لا يزالون فى الاحياء وأمهم بخير وعافية .

وتأثر الدوق من سماع هذه القصة المحزنة ، كما كان منتظرا ، ولكنه مع ذلك لم يشأ العفو عن الشيخ . لما فيه من تحدى القانون .. وانما بدلا من الحكم عليه فى الحال بالاعدام أتاحه يوما واحدا ليكون فيه مطلق السراح . فربما استطاع أن يلتمس أو يستعير من المال ما يكفى لدفع الرهينة المطلوبة .

ولكن ايجيون لم ير فى هذه المهلة خيرا كثيرا لانه لم يكن يعرف فى ايفيسوس أحدا ، أو تصور الامر كذلك ، وكان أهل المدينة لقوم سراقوسة كارهين فلا يحتمل أن يتمكن من اقتراض المال المطلوب فضلا عن أن الحياة لم تكن تحوى فى ناظريه غير الاحزان . وما درى الشيخ الحزين أنه قد قدر له فى ذلك اليوم بالذات أن يجد فى المدينة ولديه اللذين قضى الدهر الطوال عنهما باحثا .

وكان التوأمان ولدا ايجيون كما تذكر أتم ما يكونان تماثلا وتشابها قد أطلق عليهما اسم واحد فدعيا « انتيفولاس » ، كما سمى الغلامان الآخران اللذان يخدمانهما

باسم مشترك بينهما وهو « دروميو » .

فى ذلك اليوم بالذات كان الغلمان التوائم الاربعة فى ايفيسوس وهم التوأمان (اتتيفولاس) ، والتوأمان (دروميون) فضلا عن أبيهم (ايجيون) وهو لا يعلم من أمرهم شيئا ، كما أن اتتيفولاس الذى أقام معه فى سراقوسة كان فى صباح ذلك اليوم بالذات قد نزل فى ايفيسوس من السفينة التى ألقت مراسيها فى المرفأ ، وكان له صديق لحسن الحظ فنبهه الى نص القانون بشأن تجار سراقوسة ونبأه بأن تاجرا كبيرا من شيوخ بلده قد حكم عليه فى ذلك اليوم ذاته بالاعدام ، فرأى أنتيفولاس السراقوسى أن من الحكمة أن يزعم أنه تاجر من ابيداموم .

أما أنتيفولاس الاخر ، وهو ابن ايجيون الاكبر . فلم يكن جديدا على مدينة ايفيسوس . فقد أقام بها من عشرين سنة مضت . وأثرى فيها ووجد التوفيق له قرينا . وكان قد نسى من زمن طويل أباه . ان كان من قبل قد تذكره يوما أو جرى أمره فى خاطره . فقد فارقه . وهو فى طفولته . لا تعى ذاكرته يومئذ شيئا .

وما كان لامه كذلك ذاكرا ، حين كان فى السفينة مربوطا معها هو الوليد ودروميو فى السارية . وحين أنقذهم الصيادون كما تذكر مما أسلفناه عليك .

وأخذ الصيادون الغلامين من الام فباعوهما لمحارب مشهور كان بالمصادفة عما للدوق حاكم ايفيسوسى وخدم الحظ الغلام انتيفولاس هذا فى المدينة فأحس الدوق ميلا اليه وعينه ضابطا فى جيشه فنشأ جنديا شجاعا باسلا ولزمه التوفيق مرة أخرى فكان له فضل انقاذ حياة الدوق فى بعض معاركه وأراد هذا أن يجزيه على فضله وحسن بلائه فعمل على تزويجه بغادة حسناء فى المدينة تدعى « ادريانة » وكان تابعه دروميو لا يزال فى خدمته .. ولم يكن يعرف عن بقية العشيرة شيئا . وما درى أن فى المدينة التوأم أخاه لامه انتيفولاس السراقوسى ، والتوأم الاخر « دروميو » .

ولما كان انتيفولاس السراقوس غريبا عن المدينة . بعث بغلامه دروميو الى الخان الذى سينزل فيه وقد حمل الغلام حقيبة ماله . وانطلق هو وحده فى المدينة يشاهد معالمها .

وفيما كان سائرا يطوف البلد على غير هدى اذ سبح به الخاطر فى أودية التفكير . واتتابه الحزن لوحدته .. اذ جعل كل تلك السنين الماضية يجوب البلاد . متنقلا من بلد لاخر يبحث عن أمه .. الغائبة ويفتقد أخاه الذى نأى .

وحانت منه وهو سائر فى المدينة التفاتة فتولته الدهشة أن رأى من خاله لاول وهلة دروميو غلامه مقبلا نحوه . عائدا من الخان اليه ولكن الذى رآه لم يكن فى الحقيقة الاخ التوأم لدروميو تابعه وقد جاء الساعة من دار اتيفولاس . الاخر ليدعو مولاه الى العودة الى داره لوجبة الغداء .

وغلط دروميو الايفيسوسى كذلك وتوهم أنه قد رأى مولاه وما هو فى الحق به . وذهب يفهمه الى أن زوجه ترتقب أوبته الى البيت . لانه قد تأخر فى الزجوع .

وقد بادره قائلا : اللحم قد برد . وأنت الى البيت لم تعد . وما احتجزك عن بيتك الا لانك لا تجد شهوة (١) الى

---

(١) الشهوة الى الطعام هى الشهية

طعامك وما فقدت الى الطعام شهوتك الا لانك تنـاولت فطورك .

وانطلق على هذه الصورة المجلجلة المتدحرجة كالعجلة فى حديثه ، مازجا بين الجد والمزاح هكذا ، اذ كان مولاه يحب منه مجانته ، ويستروح الى دعابته .

ولا شك فى أن انتيفولاس هذا الذى كان يخاطبـه ، والذى لم يكن له من زوج فى المدينة ولا بيت ، أحس من هذا الخطاب الهازل العابث استياء ، وشعر من هذا المجون بارتباك ودهشة ، فأجاب قائلا : ان هـذا المجون فى غير موضعه ، ولا الحين حينه ، وانما خبـرنى أين تركت المال الذى أعطيتك ؟ !

ولم يكن دروميو هذا قد تلقى من سيده غير بضـعة دراهم دفعها الى صانع سروج « سروجى » ليصلح سرج مولاته ، فلما نبأ سيده بذلك ، ازداد غضبا على غضبه ، وتلت ذلك أسئلة منـه حادة اللهجـة ، وردود من الخادم ملتوية ، فلم يكن من انتيفولاس السراقوسى الا أن ضرب المسكين دروميو وأهوى عليه بكفيه فعدا الى مولاته ادريانة

زوجة اتيفولاس الاخر فنبأها بما جرى .

فغضبت أدريانة كما هو المنتظر ، من الخادم دروميو ، لانه لم يعد بزوجها للمرة الثالثة الى البيت ، ومن زوجها لاسلوبه الغريب المستهجن فى الجواب عن رسالتها وأنفذت وهى غضبى الخادم دروميو اليه مرة أخرى ليدعوه اليها ، بل ذهبت هى بنفسها فى النهاية لتفتقده .

أما اتيفولاس السراقوسى فقد قلق على حقيبة ماله ، فأسرع عائدا الى الخان ، فوجد الخادم الحقيقى دروميو قد صدع بأمره ، فراح يعتب عليه عبثه به ، حين جاءه يدعوه الى الغداء فى بيت ليس له ، وحين تجاهل نبأ المال الذى عهد به اليه ، فظن دروميو أن سيده يمزح فأجاب عن المزاح بالمزاح ، فأصابه ما أصاب دروميو الاخر من مولاه اتيفولاس على قحته وجرأته .

فلم يدر المسكين ما الذى أوجب ضربه ، فرفع صوته بالاحتجاج .

وانهما لكذلك فى حديث وهياج اذ فاجأتهما أدريانة

زوج اتيفولاس الاخر ، وان كان بالطبع قد حسبت هذا زوجها .

فانثنت تنهال عليه باللوم والعتاب على اهماله لها ، وحين انصرف عنها توهمت أنه لابد من أن يكون قد كف بغتة عن حبها ، فأنشأت تطلب اليه أن يعاملها كما ينبغى للزوج أن يعامل زوجته . فلم يستطع أتيفولاس أن يفهم من ملامتها وعتابها شيئا ، فأنشأ يقول وهو فى دهشة بالغة : « لست أعرفك وما أنا الا غريب عن إيفيسوس لم ينقض على منحدرى اليها غير ساعتين اثنتين » .

ولكنها ما زالت تصر على أنه زوجها وان درروميو هو خادم زوجها ، وطفقت تسأله أن يذهب معها الى البيت لتناول غداءه فما وجد اتيفولاس فى النهاية من سبيل آمن غير الاستجابة لالحاحها والتسليم لتوسلاتها .

ورافقها الى دارها ، وذهب معهما درروميو خادمه وكان هذا فى مثل حيرة مولاه وذهلته ، وتناهت به الدهشة فى البيت حين حيته الخادم فى الدار وكانت زوجا لدروميو الاخر ، تحية المرأة لبعلها !

وكان الزوج الحقيقى قد عاقه بعض شأن له عن المآب الى بيته فى مألوف موعده بينما ذهب دروميو خادمه الذى أنفذته أدريانة اليه يستعجله فدعا خطأ اتيفـولاس الذى يشبهه ، ولكنه حين ردته مولاته للمرة الثالثـة ليبحث عن مولاه ويجيء به ، وقع فى هذه المرة عليه حقا فبادر هذا الى الدار عائدا ليتناول طعامه ولم يكن بالطبع يعلم شيئا مما حدث فى داره فعجب حين أبلغه دروميو خادمه أنه كان قد ذهب يلتمسه مرتين فما أصابه منه الا الضرب والاذى . ولكنه لما وصل الى الدار متعبا حانقا وجد الباب موصدا ، ولم يستطع لا هو ولا خادمه دخولا ، لان دروميو الاخر ، خادم اتيفولاس السراقوسى الذى كان فى تلك اللحظـة يتناول الطعام مع أدريانة ، أمره بأن لا يدخل أحدا .

وكذلك وقف الزوج الحقيقى ورب البيت خارج بيته صائحا يطلب الدخول ، مناديا أنه اتيفولاس ومن حقه أن يدخله ، ودق البـاب ونادى أهله فسخر الخدم والغلمان الذين فى بيته منه وقالوا :

ـ ان سيدهم فى البيت الساعة يأكل طعـامه ، وغلامه دروميو معه .

ولم يشأ أحدمنهم أن يفتح الباب له ولا لخادمه ، على فرط ما تصايحا وكثرة ما دقا الباب فما وسع الزوج فى النهاية الا أن ينصرف حانقا على زوجه أن أذنت لرجل سواه فى مؤاكلتها وتركته هو خارج الدار نبيذا (١) وحمت بابه فى وجهه .

ولم تكن الامور تجرى داخل البيت هادئة . فلشـد ما كانت حيرة انتيفولاس السراقوسى من أسلوب أدريانة فى معاملته فقد اتخذتها قضية مسلما بها ، وهى أنه زوجها ، حتى لقد أحس فى الواقع نفورا منها ، واجتواه لها ، ووجد أختها لوسيانا وكانت تقيم معها لطيفة أنيسـة ، فاستراح الى حديثها .

وما أن تواتى له استدعاء خادمه دروميو حتى تسـللا من البيت هاربين ، وكان أول شخص لقيه فى الطريق صائغ

---

(١) أى منبوذا او مهملا والنبيذ منه لطول تركه فى زجاجاته او انبيته

يدنو من البيت ، واذا هو يحييه ويقدم اليه سلسلة من ذهب اذ غلط الرجل فى حسبانه اتيفولاس الاخر وكان هذا قد أوصاه باصطناع سلسلة ذهبية له ، فلما سمعه ينكر وصاته لم يتقبل انكاره جدا وانما دس السلسلة فى يده وانطلق منصرفا وهو يقول انه سيعود بعد لحظة ليقبض الثمن .

وعند ذلك خطر لاتيفولاس أن الخير كل الخير أن يرتحل من ايفيسوس وأن يعجل بتركها ما أمكنه ، لانه لا يدرى ماذا عسى أن يقع له من الاحداث الغريبة بعد الذى جرى ، فأنفذ خادمه « دروميو » ليعد له مكانا فى أول سفينة تزمع السفر .

* * *

ولنعد الان الى اتيفولاس الاخر ، زوج أدريانة الحقيقى . فقد التقى فى الطريق بالصائغ الذى أعطى سميه وشبيهه السلسلة الذهبية ، وكان هذا الصائغ التمس مدينا لزميل له من التجار بقدر من المال وقد عجز عن السداد حتى يتلقى ثمن السلسلة ، فلما لقيه اتيفولاس فى الطريق ، وجد

شرطيا قد قبض عليه بسبب شكوى التاجر صاحب الدين عليه فاتجه الصائغ بطبيعة الحال الى انتيفولاس يسأله ثمن السلسلة ليسدد به دينه ولكن انتيفولاس بالطبع أنكر أخذها .. غير أن الصائغ أصر على أنه قد أعطاه اياها فما كان من الشرطى الا أن قبض عليهما معا . الصائغ لانه لم يدفع الدين الذى عليه للتاجر وانتيفولاس لانه لم يدفع ما فى دمته للصائغ . واستاقهما الى الحبس وكان دروميو غلام انتيفولاس الاخر عائدا فى تلك اللحظة من الميناء فدلف نحوهم وراح يخاطب انتيفولاس المعتقل يحسبه سيده منبئا اياه أن السفينة توشك أن تقلع من المرفأ . ولكنه لم يتلق من جواب غير الامر له بالذهاب رأسا الى ادريانة واحضار قدر من المال يكفى لافتكاكه من معتقله للدين الذى عليه .

ففعل دروميو ما أمر أن يفعل وأعطته أدريانة المال الذى عليه ، وان كانت قد عجبت أن سمعت بأن زوجها قد قبض عليه لدين فى ذمته .

ولكن المال لم يصل الى انتيفولاس الذى كان مطلوبا له وانما وصل الى انتيفولاس السراقوسى اذ لقيه « دروميو »

أول من لقى عند رجوعه فسلمه المال الذى كان يحمله فبهت اتيفولاس هذا وعجب أشد العجب ؛ ولكن أحداثا وأمورا عجيبة من هذا القبيل ونحوه قد ترادفت عليه فى ذلك اليوم حتى لقد بدأ يحسب أنه قد مسه سحر ويخاله فى حلم .

ورأى الناس يحيــونه فى الطريق كأنه بعض صحابهم وآخرين جعلوا يتحدثون اليه ، أو يعرضون عليه مالا ، أو يدعونه لزيارتهم ، أو يشكرون له صنائع ماضية أسداها اليهم . بل ان حائك ثياب دعاه الى حانوته فأخــذ مقاييس جسمه ليصطنع له « سترة » من حرير .

وزاده حديث درومیــو ذهولا على ذهوله ، اذ مضى ينبئه بقصة القبض عليه وتهديده بالسجن اذا هو لم يدفع المال المطلوب وما الى هذا كله من أحاديث .

وأدهى من ذلك دلفت نحوه امرأة فى المدينــة فذكرته بأنها قد تغدت معه فى ذلك اليوم وانه وعدها عقدا وأمسكت به لا تريد أن تتركه حتى يبر بما وعد ، فهاج أخيرا هائجه . وثارت ثائرته . وأنكر معرفته بتاتا بها وبالعقد الذى تتحدث

عنه وانحى عليها بحداد الكلم . وقوارص الالفاظ وانفلت مسرعا لا يلوى على شيء .

ولا شك فى أنها قد غلطت هى كذلك فيه . وحسبته أخاه . فغضبت من انكاره حقوقها على تلك الصورة ، وعولت على الذهاب الى داره وانباء أدريانة بأنه سرقها عقدا لها وراح يسلك مسلك المجنون ذهب لبه .

وقد فعلت ..

وفيما كانت تقص على أدريانة القصة جاء اتيفولاس الزوج الحقيقى غاضبا من أنه لم يتلق المال الذى طلبه لفكاكه من الحبس فلم يجد بدا من أن يأتى بنفسه لاخذه .

وجاء معه الشرطى الذى اعتقله ليذهب به الى السجن ان هو لم يدفع .

فلم يبق فى نفس ادريانة عندئذ شك فى أن زوجها قد ذهب عنه لبه اذ بجانب قصة المرأة التى روتها عنه ، كان تصرفه الغريب على الطعام ، وادعاؤه ــ كما توهمت ــ أنه لا يعرفها وأنه لم يكن لها فى يوم ما زوجا .

ولما صرفت الشرطى بالمال الذى جاء من أجله ، دعت انيها خدمها ليشدوا وثاق زوجها ويلقوه فى حجرة مظلمة ، كما كانوا يفعلون بالمجانين فى تلك الايام ، وبعثت فى طلب طبيبه ليفحصه ويرد اليه عقله .

وهاج اتيفولاس التعس بطبيعة الحال وتناهى غضبه من هذه المعاملة الخشنة التى عومل بها ، ولكن كلما ازداد غضبا وهياجا ردوا ازدياد غضبه الى الجنـون ، وضعفت عندهم الرغبة فى حل وثاقه واطلاق سراحه .

ولما رأوا « دروميو » يتحيز لمولاه ويؤكد صحة أقواله كتفوه (١) هو كذلك وطرحوه أرض حصير (٢) مظلم .

ولم تلبث أدريانة أن تلقت من أحدهم نبأ بأن زوجها وخادمه قد شـوهدا فى الشارع ، وما كان ذلك فى الواقع الا اتيفولاس الاخر وغلامه ، فظنت أدريانة أن زوجها قد انفلت من وثاقه فجرت هى وخدمها الى الطريق تطلبه ولكن

---

(١) كتفوه على وزن ضربوه لا بالتشديد كما مشهور بمعنى شدوا يديه

(٢) الحصير هو المجلس او السجن .

اتيفولاس هذا وغلامه جردا سيفيهما مهددين القوم بالموت ان هم اقتربوا منهما فلم يجسر أحد بادى الرأى أن يتقدم نحوهما .

غير أن الصائغ الذى اصطنع السلسلة الذهبية لاتيفولاس الافيسوسى مر عليهم عرضا فى تلك اللحظة ومعه التاجر الذى يطالبه بما عليه ولعلك ذاكر أن السلسلة وصلت خطأ الى يد اتيفولاس السراقوسى وكان محيطا بها عنقه فبصر بها الصائغ فتقدم مسرعا اليه وندد به كيف ينكر أنه قد تسلمها منه وهو الساعة متقلدها ، وكاد القوم يشتجرون على السلسلة لولا أن طلبت أدريانة الى التاجر وزميله أن لا يمسا زوجها لان المسكين قد فقد عقله ، وانما يصح أن يشدا وثاقه هو وغلامه ويرداه الى البيت .

ولكن لحسن حظ أتيفولاس وخادمه ، كان الموضع الذى اختلف القوم فيه بقرب دير وكانت أبواب الدير مفتوحة وهو مكان مقدس ألف يومئذ الذين فى ضيق من أمرهم أن يلجأوا اليه محتمين .

والى بابه ركض الرجل وخادمه فخرجت لهما الراهبة الكريمة تسأل ما خطبهما .

ولما سمعت من أدريانة بيانها ، وكيف كانت لا تفتأ تلوم زوجها على اهماله لشأنها ظنت أن ما بالزوج من دخل يرجع الى حاجتها وكثرة تعقبها لاغلاطه ومشاكستها له ، فأبت أن تسلمها اياه قائلة انها ستعمل على مداواته حتى تشفيه ، وآوت اليها اتيفولاس وخادمه وأوصدت الابواب فى وجه الاخرين .

وهكذا بينما كا نالزوج الحقيقي وخادمه دروميو ، فى الدار محتبسين ، كان اتيفولاس الاخر الذى حسبته أدريانة زوجها ، ودروميو شبيه غلامه فى الدير آمنين .

ولا معدى لنا الان عن الرجوع الى بداية هذه القصة ، والى الشيخ ايجيون والد التوأمين وما كان من أمره .

وأنت قد علمت آنفا أن الدوق كان قد حكم عليه بالاعدام اذا هو لم يظفر بالمال ليدفع فديته بعد مهلة اليوم .

وقد انقضت المهلة فسيق الشيخ المسكين الى خارج المدينة ليلقى منيته .

وجاء الملك بنفسه كذلك لعله يقف التنفيذ اذا ما ظهر فى اللحظة الاخيرة من يدفع عن الشيخ فديته .

وكانت ساحة الاعدام غير بعيدة من الدير .

فلما اقترب الدوق من الموضع دلفت ادريانة نحوه تطلب انصافا لها من الراهبة اذ رفضت رغم ضراعاتها لها وتوسلاتها أن تسلمها زوجها المجنون فاستمع الدوق لظلامتها حنانا من ادنه وهم بأن يبعث فى طلب الراهبة ليسمع ما قولها فى قضية الشاكية لولا أن جاء أحد خدم أدريانة يعدو بأنباء جديدة . وهى أن الزوج والخادم دروميو قد تمكنا من الافتكاك من قيدهما . وان الزوج قد ضرب الطبيب . وأمر باحتجازه وطلب فى غضب أن يذهب رسول الى زوجته ليعود بها حتى يسألها ما الذى غرها به حتى تعامله تلك المعاملة ! فانثنت أدريانة الى الخادم قائلة انها تعلم أن زوجها فى الدير . ولكن ما كادت تفوه بهذه الكلمات حتى ارتفع لعينيها فى تلك اللحظة شبح زوجها انتيفولاس وقد جاء بنفسه مصطحبا دروميو خادمه فبهتت من مشهده خيالها وانعقد لسانها فلم تستطع قولا .

وكان أول شيء فعله هو أن توجه بالقـول الى الدوق يستعديه على زوجته .

وبينما كان واقفا ثم يتحدث ويشرح ظلامته ، اذ ظل الشيخ ايجيون يرمقه ببصره وقد راح يناجى خاطره قائلا : ها هو ذا ولدى العزيز اتنيفولاس الذى فارقنى من سبع سنوات ليفتقد أمه ويبحث عن أخيه .. ولكن يا عجبا .. لست أدرى لماذا لم يتبين أباه ؟ !

وأقبل عليه يحييه ودمع الفرح فى عينيه ولكن اتنيفولاس أنكر معرفته به بتاتا .. ولا عجب ، فانه فى الحق كما علمت لم يكن سـوى اتنيفولاس الذى فارقه فى السـفينة يوم العاصفة وكان فى المهد صبيا .

غير أن الشيخ المسكين وقد ظنـه ولده الاخر .. لم يصدق سمعه وعجب أشد العجب من أن ينسى فتى أباه من فرقته سبعة أعوام فقط . فعاد يتوسل اليه ودموع الغم فى هذه المرة تتحير فى مآقيه ويناشده الا ما تبين أباه .

ولكن هذه الالغاز والمعميات والاغلاط تدنو أخيرا من

نهايتها اذ تنفتح أبواب الدير وتخرج الراهبة وقد جاء فى أثرها اتيفولاس الاخر وخادمه دروميو ولاول مرة يجتمع التوأمان اتيفولاس ، والتوأمان دروميو والاب الشيخ ، فى صعيد واحد .

وعندئذ تذكر الدوق القصة التى قصها عليه ايجيون وأمر التوائم الاربعة ، فما لبثت القصة المعقدة المتشابكة التى سمعها منذ لحظة أن وضحت له وعرف اتيفولاس السراقوسى أباه ففرح بلقائه فرحا بالغا ، وجعل ايجيون ينقل عينيه من وجه هذا الى وجه ذاك وقد أدرك أنه قد وجد ولديه بعد طوال فراق .

ولكن كان أسعد الحوادث كلها ما تبين بعد ذلك من أن تلك الراهبة لم تكن سوى زوج ايجيون التى فقدها ، والتى ضربت النوى بينها وبين زوجها وولديها عقب غرق السفينة .

فأنشأت تقص على القوم كيف قدمت الى ايفيسوس محدة (١) على زوجها ولولديها ثاكلة فدخلت الدير لتعيش

---

(١) احدت بتشديد الدال من الحداد وحدت الثلاثية لغة فيها ويقال احدت المراة عن زوجها امتنعت عن الزينة وحزنت عليه .

راهبة ، وما زالت فيه حتى أصبحت كبيرته .

وهكذا جمع الله أشتات هذه الاسرة جمعة مسعدة ، وانفكت الخيوط الاخرى فى عقدة هذه القصة بالطبع فردت السلسلة الذهبية الى مشتريها الحقيقى وقبض الصائغ والتاجر مالهما وظفرت ادريانة ببعلها عاقلا سعيدا وكان ظن من قبل أن به دخلا أو غريبا ليست له بالدار صلة .

وكان آخر شىء تم هو الافراج عن ايجبون وكان كما تذكر قد حكم عليه بالاعدام اذ تقدم بالطبع اتيفولاس الفتى فى الحال فدفع الفدية عنه . ولكن الدوق عفا عن ايجبون وأبى أن يأخذ مالا وتزوج التوأم الاصغر اتيفولاس السراقوسى فيما بعد صاحبة لادريانة .

وعاشوا جميعا فى ظلال السعادة والرخاء ..

بيريكليس أمير « تير »

كان بيريكليس أمير « تيــر » فى زيارة لانتــايوكاس امبراطور الاغريق العظيم السلطان فاكتشف عرضا سر جريمة خفية كان انتايوكاس اقترفها من عهد بعيد .

وكان بيريكليس هو وحــده الذى عرف السر فخشى انتايوكاس منه أن يعلنه فبادر الى الامر بقتله .

وكانت تير على منال من سلطان هذا الامبراطور الغرير وسطوته ، فأوجس بيريكليس خيفة من أن تجلب كراهيــة الامبراطور له ، غضبه ونقمته على المدينة ، فلعتزم أن يذهب الى المنفى بنفسه طائعا راضيا ، وهو قائل فى نجواه لخاطره : « بهذا أنقذ المدينة وأنقذ نفسى »

ومن ثم عهــد بالحــكم الى وزيره الامير هليكانوس وأبحر من « تير » فى زى بعض السادة ، منتويا أن يعود حين يزيل الموت أو الحظ سبب الخطر .

وفى ذلك الحين وقع قحط أليم أصاب اقليم (طرسوس)

وكان من بعض أملاك « أنيتوكاس » وكان « بيريكليس » قد جعل أول منزل له فى سياحته ، بذلك الثغر وكان قد حمل معه ميرة وفيرة فاستطاع بها أن يخففه من بلاء المجاعة عن المدينة الساغبة .

وجاءه حاكمها (كليون) بالنيابة عنها يرحب به من صميم قلبه ويبدى له جميل العرفان لمعونته .

غير أن (بيريكليس) لم يلبث فى « طرسوس » أن تلقى رسالة وصلت من (تير) تنبئه بأن (أنتيوكاس) قد ترامى اليه نبأ مقره وقد يبعث من قبله برجاله الى طرسوس لقتله . فاعتزم أن يركب البحر مرة أخرى فذلك خير من أن يخاطر بحياته وحياة أهل (طرسوس) اذا هو لبث بين ظهرانيهم .

ولكن سفينته بعد أيام قليلة من مبتدأ رحلتها غرقت بريح عاصف فعمل وحده على بلوغ الشاطىء سبحاً طويلا .

وألقى به اليم على شاطىء غريب فوجد عنده صيادين فى شغل برفع شباكهم فأحسنوا اليه وأعطوه ثيابا جافة ليرتديها وحدثوه بأخبار البلاد فعلم منهم أن مدينة « ينتابوليس » لا تبعد أكثر من مسيرة نصف يوم من

موضعهم وأن على المدينة أميرا يدعى «سيمونيدس» راحت ألسنة الناس جميعا تلهج بحمده لخيره واحسانه ووادع حكمه .

ونبأه الصيادون كذلك أن للامير ابنة مليحة سيقام الاحتفال بعيد مولدها غداة اليوم التالى وأن الامراء والملوك يتوافدون من جميع الارجاء لحضوره ويتنافسون فى مبالغ حذقهم لافانين المجالدة فى سبيل الفوز بالحب عندها .

وفيما كان الصيادون منهمكين فى صيدهم اذ وجد صياد منهم شيئا ثقيلا احتبل فى شبكته فلما رفعه تبين أنه عدة كاملة من السلاح فجاء القوم الى (بيريكليس) يحملونها . وما كان أشد فرحه اذ وجد أنها عدته وكان قد أصابها هدية غالية من أبيه الراحل اذ كان يرجو حين أهداها اليه أن تكون عونا لولده كما أعانته من قبل وحسنت نصيرا .

وذهب « بيريكليس » يقول لنفسه : « ان استرداد هذه العدة لخير عوضا ، وأحسن مردا . من نكبة غرق سفينتى ،

ففى وسعى الان أن أساهم فى حفـلة الغد وأمتحن حظى فيها ، وقسمتى » .

وأمده الصيادون بثياب أخرى صـالحة وجواد كريم لم يكن ثمة خير منه .

وركب يريد مدينة « بنتابوليس » ، وفى غداة اليـوم التالى أخذ الفوارس المتبارون يمرون واحدا اثر واحد وفقا لاصول الحفـلة ونظامها ، أمام الامـير « سيمونيدس » « وثايسا » ابنتـه فجعلت الاميرة الشارات على الدروع بدورها حتى اذا مر القوم جميعا . اذا بفارس قد جاء فى المؤخرة . وهو فى عدة من سلاح صدئة تحمل شـعارا من غصن ذابل لم يبق منه ناضرا الا رأسـه وعلى الدرع قد نقشت عليه هذه الكلمات : (بهذا الامل أحيا) فما لبثت حقـارة مظهـره أن جعلت الفـوارس الاخرين يزدرونه ويستخفون بشأنه ، ولكنهم كانوا فى سخريتهم منه ظالمين له لانه ما لبث فى المبارزة والمسابقة وأفانين الضرب والطعن أن بزهم جميعا وخرج هو المنتصر وبذلك فاز بإكليـل النصر

وتلقى التفاتا خاصا ورعاية من الامير وفتاته .

وكانت العادة فى هذه الحفلات أن الغادة التى تقام لتكريمها وهى الاميرة (ثايسا) هى التى تتوج المنتصر باكليل انتصاره .

وكذلك تقدمت الاميرة الى هذا الفارس الغريب تحمل الاكليل فتوجته به وأبدت نحوه التفاتا خاصا واحتراما .

ولما سألته عن شأنه ومن أى البلاد جاء رأى الحزم والحكمة فى الجواب على سؤالها بقوله انه من سادات من أهل « تير » اذ خشى أن يبوح بحقيقة أمره وخطره فيبلغ نبأ وجوده فى « ينتابوليس » سمع « أنتايوكاس » .

وأقام أياما فى المدينة ضيفا على الامير ، فما عتم أن وقع فى حب الأميرة الحسناء . .

غير أنه لما كان قد ادعى أنه لم يكن سوى سيد من عرض الشعب ، وما هو بالحسيب أخى المحتد ، راح بادىء الرأى يخفى عنها هواه ، ولكن حين أبدت أنها تبادله الحب ، وان أحب شىء الى نفسها أن يكون لها زوجا وافق الامير « سيمونيدس » على رغبتها فتم الزواج فى الحين المناسب .

وقبل أن ينقضى عام واحد على زواجها ، جاءت الانباء تترى بأن « أنتليوكاس » عاهل الاغريق قضى نحبــه وان شعب « تير » يلحون على الوزير « هليكانوس » فى تولى العرش ، بعد أن ظل شاغرا لطول غياب « بيريكليس » عن وطنه ، ولكن (هليكانوس) فيما جاءت به الاخبار كره أن يفعل ما دام ثمة أمل فى رجعة (بيريكليس) وأنه لذلك أنفذ رسلا يبحثون عنه ويلتمسون مكانه .

فلم يبق بعد ذلك سبب يحمل (بيريكليس) على اخفاء حقيقة أمره ، فنبأهم نبأه ، وأعلنهم أن الوقت قد حان ليشد الرحال الى (تير) .

وسر (سيمونيوس) كثيرا حين علم أن أميرا فى مثــل شهرة (بيريكليس) ومطار صيته قد أصبح له نسيبا ، وان كان قد أحزنه أنه عما قليل يفارقه ، وأسف بخاصة على أنه مفارق حتما ابنته كذلك . اذ كانت ترغب فى مرافقة زوجها .

ولقد حاول أن يثنيها عن هذه الرحــلة الخطرة مذكرا

اياها بأنها لن تلبث أن تضع حملها ، ولكن (ثايسا) أصرت على أن ترافق زوجها الى (تير) .

وعاجلت الرحلة كارثة اذ هب على السفينة اعصار رهيب . ووضعت (ثايسا) حملها وسط قصف الاعصار ، وشدته ، وزفيفه ، وبسبب الاضطراب الذى ساد السفينة خلاله ، وفرط ما انتاب الاميرة من خوف ، وقلق ورعب .

وغشيتها عند الوضع اغماءة عميقة حتى لكأنما قد سكنت أنفاسها .

ولما احتملت المرضعة المولودة الى (بيريكليس) والنبأ الاليم بأن زوجه قد فارقت الحياة فجأة ، تملكه الغم ، وحطمه الاسى .

وظل الاعصار على أشده ! واغتقد الملاحون فى منازع أوهامهم وحادث خرافاتهم أن العاتية لن تخف شدتها ما دام فى السفينة رفات ميت ، فجاءوا يطلبون الى (بيريكليس) أن يأذن فى القاء جثة زوجه الى الامواج ، فاضطر الى

الاذعان لما طلبوا ، ولكنه أصر على أن تقام لهــا الجنازة الواجبة .

وأنشأ يضع جثمان مليكته فى صــندوق للملاحين فى السفينة ، ونثر الزهر والعطر فوق بدنها وحلاها بجواهر ، وجملها بزينة . وعلق بالصندوق رقعة كتب فيها اسمها . ورجاء الى من يتفق له العثور على الصــندوق وفتحه أن يدفنها الدفنة اللائقة . وفيما كانت السفينة غير بعيدة عن ساحل « اينيسوس » أنزل الملاحون الصندوق فى اليم .

وذهب الملاحون بعــد ذلك يتجهون بالسفينة صوب « طرسوس » لرغبة « بيريكليس » وكانوا يريدون سواحل « تير » وهى أبعد من « طرسوس » موضــــعا . وما أراد « بيريكليس » من ذلك الا أن يعهد بالمولود الى صاحبه « كليون » ويشخص هو الى « تير » اذ خشى على المولود أن يموت اذا ظل فى البحر طويلا .

وفى اليوم التالى لهبوب الاعصار كان ســيد من أهل « اينفيسوس » يدعى « سريمون » يسير حذاء الشاطىء . مشاهدا ما فعل الاعصار ، وكان « سريمون » هذا معروفا

فى المدينة ، محبوبا من أهلها لكثرة الاحسان ، وايتاء الخير ، ولبراعته فى الطب ، وانه لواقف على شرف من البحر ، اذ جاءه غلمانه يحملون صندوقا رحيبا ضخما ، قائلين ان الامواج قذفته بالساحل ، فأمرهم فى الحال بفتحه .

ولشد ما كانت دهشته أن رأى فى جوفه جثمان غادة حسناء فى ريعان الشباب قد تناثرت الازاهر حولها ، وحليت بجواهر وزينة ، وحصل على الرقعة المكتوبة فقرأ فيها ما يلى :

« أريد بهذا أن تعلموا ، إن قدر لهذا التابوت أن يبلغ الثرى أننى أنا الملك « بيريكليس » قد فقدت هذه الملكة التى تعدل عالمنا كله وما حوى ، فمن يجدها ، فليلحدها .

لقد كانت ابنة ملك . وبجانب هذا الكنز له أجرا ولتجزه الالهة على احسانه خيرا » .

وهكذا أدرك (سريمون) من تكون الغادة التى وسدت التابوت ، ولكنه حين ألقى بصره على وجهها لاحظ صباحة معارفه وطلاوة معالمه فأخذ يشك فى أن تكون ميتة ، فأوقد

نارا وبعث غلمانه فى طلب أدويته وعقاقيره ، وأمر بأن تعزف الموسيقى . وبفضل الدفء . والعقاقير بدأت (ثايسا) تتحرك أخيرا فى مرقدها وتثــوب الى رشــدها ، ثم فتحت فمها وأنشأت تسأل : « أين أنا ، وأين زوجى يا ترى ، وأى عالم هذا الذى أرى ؟ »

فأوحى « سريمون » الى الخدم أن يحملوها برفق الى أقرب دار من الموضع وما زال يرعاها ، ويشرف على استرداد عافيتها ، لانها لم تكن فى الواقع قضت ، وانما هبطت فى غشية رخية الامد .

وأراها « سريمون » عقب ابلالها الرقعــة التى تركها « بيريكليس » فى الصندوق فتذكرت الاعصــار ومرضها ولكنها لم تكن تدرى أنها وضعت وليدة ، وظنت أن الركب جميعا الذين كانوا فى السفينة معها قد غرقوا .

وعرض « سريمون » عليها أن تكون كاهنة فى معبــد لديانا غير بعيد ، ولما لم يبق لها من زوج ولا ولد تعيش لهما كما توهمت لم يسعها غير القبول .

أما « بيريكليس » فقــد أقام عند صــديقه القــديم « كليون » فترة قصيرة من الزمن وهو فى قلق ولهفــة على المسير الى « تير » عاجلا ليتقلد الحكم ، مخافة أن يطول على الشعب أمد انتظاره فيعهد بالحكم الى سواه .

وقبل ازماع الرحيل ترك وليدته التى سماها (مارينا) ومرضعتها (ليكوريدا) فى ذمة (كليون) وزوجه (ديونيزا) .

وفى (طرسوس) قضت الطفلة صباها فى رعاية وخير ، اذ اتخذها الملكان لهما ولدا ، وأدباها . فأحسنا تأديبهــا . وكانت الصبية ذكية بارعة ، فاشتهرت بعلمها ، كما عرفت بجمالها وكرم خلقها .

غير أن فضائلها ومحاسنها كانت وبالا عليها ، فان ابنــة (ديونيزا) ملاعبتها فى الطفولة ، وصاحبتها لها فى سنها كانت دونها بكثير ذكاء وجمالا فدب فى نفس أمها دبيب الغيرة ، ونمت الغيرة على الايام فاستحالت حقدا وكرها ، وانتوت التخلص منها ، ولكنها أخفت نيتها هذه ، اذ رأت مربيتهــا الوفية الامينة ساهرة عليها ، راعية .

ولكن المربية العجوز قضت نحبها بعد سنين فسنحت « لديونيزا » الفرصة المنشودة فاستأجرت خادما لها يدعى « ليــونين » ليصحب « مارينــا » فى بعض الاحايين الى الشاطىء للرياضة . واتفقت معه على أن يتحين لقتلها والقاء جثتها فى اليم .

وكان الخادم لهذه الفعلة كارها ولكنــه خشى غضب مولاته ، ووعدها أنه عامل بأمرها . ففى ذات يوم وجدت « ديونيزا » الفتاة « مارينا » تنتحب على رحيــل مربيتها العجوز فتظاهرت بالعطف عليها ، واقترحت أن تخرج مع (ليونين) للرياضة على الساحل .

ففيما كانا سائرين أنشأت (مارينا) تقص على رفيقها فى رياضتها قصــة مولدها فى يوم ريح عاصف ، وتصف كيف جعل أبوها يشجع الملاحين على محاولة انقاذ السفينة وكانت قد سمعت بذلك من المربية العجوز ، ولكن (ليونين) قطع عليها فجأة حديثها وأمرها بغلظة أن تخرجاثية وأن تصلى لله آخر صلواتها .

وانها لكذلك تحاول مقاومتـــه ، اذ ألقى جمـــاعة من القرصان فى تلك اللحظة مراسيهم بالساحل ، ورأوا الصراع الدائر على أعينهم ، فجروا نحوهما وانتزعوا الفتـــاة من قبضة (ليونين) واحتملوها الى البحر معهم .

ولمـــا ذهب عن « ليونين » العجب مما رأى حمد الذى جرى ، اذ ألحى عنه الجريمة التى كان موشكا أن يقترفها . وحال القدر بينـــه وبين أن يستحيل قاتلا ، وعول على أن ينبىء مولاته الملكة أنه قد نفذ أمرها .

أما الفتاة « مارينا » فقد فر القرصان بها الى « ميتيلين » حيث باعوها بيع الرق لمن اشترى ، وقضت فى تلك المدينـــة ما شاء الله أن تقضى فى عيش ملىء بمناكد وغصص ، ولكن ما لبثت فضائلها ومعارفها وجمالها أن استرعى الابصـــار ، فاكتسبت شهرة واســـعة ، ومالا وفيرا ، اذ ذهبت تعـــلم الموسيقى وشغل الابرة وغيرهما مما أوتيت منه علما .

وبلغت شهرتها مسامع «ليزيماكوس» حاكم «ميتيلين» فأحبها ورغب سرا فى الزواج بها فان مركزها فى الحياة لم يكن يناسب الاعلان عن بنائه (زواجه) بها .

وكان (ليونين) قد نبأ مولاته (ديونيزا) أنه قتل مارينا (فأشاعت) هى أن الموت اخترمها ، وأقامت حفلة حداد عليها .

وكان « بيريكليس » قد رحل عن « تير » بعد الفراغ من شأنه فيها وعاد الى « طرسوس » ليسترد ابنته مصطحبا وزيره الامين « هليكانس » .

غير أنه لما وصل الى « طرسوس » وعلم أن ابنته قضت نحبها غشيه من الغم والهم ما غشيه ، فلم يطق فى المدينة مقاما . وأبحر عائدا الى وطنه ولبث فى السفينة وهى تجرى به فى اليم محتجزا نفسه من فرط الهم والاسى .

وعرجت السفينة على ثغر « ميتلين » فجاء حاكمها « ليزيماكوس » فى سفينة له الى الساحل ليعلم من حملت السفينة .

ولما سمع من الوزير « هليكانس » بأمر « بيريكليس » والحزن الصامت الذى انتابه استأذن الوزير فى الدخول عليه لعله يواسيه أو يخفف بعض لوعته . ولكن «بيريكليس»

لم يحفل بسلامه ولم يجب عن تحيته . فخطر فى خلد « ليزيماكوس » أن يستعين بالحسناء « مارينا » لما اشتهرت به من رقتها . ولطف مدخلها على النفوس الموجعة . ومبلغ مواساتها للقلوب المروعة . فبعث فى طلبها بعد استئذان الوزير فى مجيئها .

فلما أقبلت نبأها « ليزيماكوس » أن فى السفينة أميرا عظيما غشيه حزن بالغ وألح عليه وجوم شديد وطلب اليها أن تعمل على شفائه ما استطاعت الى ذلك سبيلا . فأجابت قائلة : « انى لباذلة آخر ما فى براعتى وخبرتى لشفائه . ولكن على شرط أن لا يدنو من المريض أحد سواى ، وخادمتى هذه » .

ودخلت على « بيريكليس » معتزلة .

ولما كان الإنسان فى حزنه وبلواه اذا سمع بحزين آخر أكبر منه مصابا وأجلد عليه صبرا ، استحيا من الاستسلام لحزنه ، أنشأت (مارينا) تحاول تنبيه (بيريكليس) من الوجوم الذى ألح عليه فذهبت تقص قصة حياتها ، راوية

له كيف كانت وليدة أبوين فى الملوك مكانهم ، وكيف بيعت بقسوة فى سوق الرق مرتخصة .

وفيما كانت ماضية فى حديثها أحس (بيريكليس) الرثاء لها ، وحرك صوتها احساسا غريبا فى نفسه .

ولشد ما بهت وعجب حين سمع منها أن اسمها (مارينا) فبادرها فى لهفة يسألها من أبوها .

وعند ذلك رأت (بيريكليس) يبكى اذ لم يعد يتمالك نفسه ، أقبلت عليه تسأله : (يا سيدى الكريم علام بكاؤك ؟ أحسبك تظننى محتالة كذوبا ، فلا والالهة ما أنا كذلك ، ولكنى ابنة الملك « بيريكليس » ان كان فى الناس اليوم حيا) .

ودعا بيريكليس اليه أتباعه كأنما أراد بذلك أن يستوثق من أنه سمع حقا وفى انفجارة من انفجارات العاطفة راح ينبئهم بهذه الانباء السارة ويصيح بهم أن ها هى ذى « مارينا » ابنته ردت اليه . وأحدث التحول الفجائى من أعماق الحزن والغم الى أوج الحنانة تأثيرا فى نفسه ونهك قواه فهبط فى وادى الكرى وظلت « مارينا » بجانبه .

ورأى فيما يرى النائم الالهة ديانا معبودة «ايفيسوس» تأمره أن يذهب الى معبدها ويقص أمام الهيكل قصته وما غمر حياته من رزء وبلاء ووعدته بأنه اذا فعل ما أمرته به ظفر بسعادة نادرة مخبأة له .

فاستيقظ من نومه منتعشا واتنوى أن يذهب الى « ايفيسوس » راجلا ولبث فى « ميتيلين » بضعة أيام ضيفا على حاكمها « ليزيماكوس » وعلم منه برغبته فى الزواج « بمارينا » وكانت هى فيه راغبة فرضى قرانهما مشترطا عليهما أولا أن يصحباه الى المعبد .

والى (ايفيسوس) ارتحلوا فزار (بيريكليس) رفقاءه فى المعبد فتلقتهم فيه (ثايسا) فى مسح الكاهنة وكان بين الحاضرين (سريمون) الطبيب الذى أنقذ حياتها ولكن (بيريكليس) لم يعرفها ولكن (ثايسا) عرفته من صوته من أول وهلة ولبثت ترقبه وهو يتحدث بفرح شديد . وفعل ما أمرته (ديانا) فى الحلم أن يفعل فقص قصته عند الهيكل وأصغت (ثايسا) اليه فلم يبق شك فى نفسها أنه هو (بيريكليس) .

فانثنت تناديه منتحبة باكية : (أنت بيريكليس مليكى) وسقطت مغشيا عليها .

ودار (بيريكليس) مبهوتا الى (سريمون) يستفسره فأجابه أن التى يراها حياله ليست سوى زوجه .

وهكذا اجتمع (بيركليس) بزوجه بعـــد طول بين ولقيا ابنتهما بعد أليم فراق .

ولم يبــق من القصــة الا أن تعرف مصير الغــادرة (ديونيزيا) فقد علم أهل (طرسوس) بكيدها بقتل (مارينا) فثاروا عليها وأحرقوا القصر عقابا لها على جحودها وكفرانها فالتهمتها النيران وبئس المصير .

« تمت »

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٣٠ شارع منصور
ص.ب ٢٣٩٨

هيئة قناة السويس

مراكز الاشارة

يقع على طول القناة اثنا عشر مركزا للاشارة تتولى مراقبة سير الملاحة ، بحيث لا تتجاوز سرعة البواخر ١٤ كيلو مترا فى الساعة ، وهى السرعة المقررة لها أثناء مرورها بالقناة .

تبلغ مراكز الاشارة المقر الرئيسى لقسم التحركات فى الاسماعيلية عن أى انحراف للسفن عن المجرى المائى أو ازدياد فى سرعتها ، فيتولى فى الحال توجيهها باللاسلكى .

كما تخطر مكتب الحركة بالاسماعيلية عن حركة البواخر من الجانبين لتسجيلها على رسم بيانى ولابلاغها أوامره سواء بالرباط أو البدء فى السير أو أية تعليمات أخرى خاصة بالملاحة اما عن طريق اللاسلكى أو بواسطة الاشارات التى ترفعها هذه المراكز على ساريتها . وتبلغ عدد الاشارات فى كل مركز ارشاد ٥٥ اشارة بحرية دولية تحمل كل منها معنى خاصا معروفا للبواخر .

وفضلا عن ذلك يقوم كل مركز بابلاغ مكتب الحركة بتقلبات الاحوال الجوية فى منطقة اختصاصه اذا هبت فيها زوبعة رملية أو خيم عليها الضباب مما يتعذرمعه الرؤية ، ومما قد يؤدى الى توقف الملاحة بعض الوقت تفاديا للحوادث .

كما يتولى مركز الاشارة مراقبة الشمندورات من حيث التخطيط والاضاءة ولا تخفى أهمية هذه الاجهزة للمرشد الذى يقود السفينة عبر القناة ، فهى تساعده على الاحتفاظ بسفينته فى المحور ، فاذا ابتعدت شمندورة عن موضعها الاصلى أو انطفأ نورها بادر عمال الاشارة فورا الى ضبطها أو اصلاحها حتى تتوفر للمرشد أسباب سلامة المرور .

الكتاب ٣١ الثمن ٥ قروش
صدر يوم الخميس ٣١ ديسمبر (كانون أول) سنة ١٩٥٩